FEELINGS OF DEATH

مشاعر الموت

فهد بن نايف
FAHAD BIN NAIF

DAR PAGES

أنا الموتُ..

أنا هوَ عَدوّ الحَياة..

أنا نِهايةُ كُلِّ شيءٍ، وبدايةُ النّهاية..

أنا لستُ رجلًا..

أنا لستُ مخلوقًا..

أنا لستُ بحيٍّ يتنفّس..

أنا اللا شيء، وأنا كُلُّ شيء..

أنا هو الموت، وأنا قادمٌ إليك.

فهرس

الفَصلُ الأوّل

"اللّعنة!".....16

الفَصلُ الثّاني

"لَمسَةٌ دافئة".....36

الفَصلُ الثّالث

"الأُمنيَة!".....46

الفَصلُ الرّابع

"التّهويدَة".....62

الفَصلُ الخامِس

"ذلك اليوم".....90

الفَصلُ السّادس

"اختيار!".....120

من الغريب إلى الغرباء..

سؤال؟

هل سبقَ وشعرتَ بشعورِ الفراغ اللّا نهائيّ داخلَ روحك؟

الكُره..؟

الحِقد..؟

البُغضِ والنّفور من كُلِّ شيء؟!

ماذا عن ذلكَ الصّوتِ، الذي يلازمُكَ كُلَّ ليلةٍ، قبلَ أن تغطُّ في نومٍ لا هَناء فيه؟

نومٍ خالٍ من الأحلام حتّى والكوابيس!

صـوتٌ يُردّدُ كعقربِ الثّواني داخلكَ، مآسي حياتكَ ووجع قلبك، والهموم من حولك، والفراغ الذي يُلازمُ روحكَ، والحظّ السيّئ الذي يُطاردكَ أينما ذهبت؟

وبعدَ أن تُجهدَ، روحكَ وقلبكَ وعقلكَ بالتّفكير المُؤلِمِ لساعاتٍ رُبّما، يحمسُ لكَ ذلكَ الصّوتُ، إمّا الاستسلامُ أو السّعيَ بجدٍّ مهما بلغت همومُ الحياة..

@ART_OF_BOOK

صوتٌ يهمسُ لك: {نَم وغدًا يومٌ جديدٌ للمحاولةِ مرّةً أخرى، ولتغييرِ كُلِّ شيءٍ، والبدءِ من جديد..}.

وصوتٌ يهمسُ لكَ: {استسلم فلا حاجةَ لنا في المحاولةِ وإعادةِ الكرّة، فنحنُ فقط أصابنا النّحسُ في هذهِ الحياةِ، ولا داعيَ لبذلِ المزيدِ من الجهد، لذا اختر الطّريقَ السّهلَ واستسلم؟!}.

كلا الصّوتينِ هذين، هما صوتُ روحكَ داخلك..

جزءٌ منكَ يرغبُ بالمقاتلةِ من أجلكَ أنت!

وجزءٌ منكَ فاقدٌ للأملِ تمامًا، والرّغبةِ في المحاولة.

ولكن هناكَ صوتٌ آخر؟!

صوتٌ يهمسُ لك في خفاء روحك، بينما أنت تائهٌ لا تدري ماذا تُريد، يرجوكَ لإيقافِ هذا الصّراعِ بينهما، وإنهاءِ كُلِّ تلكَ الضّوضاءِ المُزعجة!!

صوتٌ لا تسمعهُ، إلّا إذا فقدتَ ذاتكَ والرّغبةَ في الشّعور..

الرّغبةَ في المحاولة..

الرّغبة في الحياة!

هذا هو صوتُ الموتِ، والجزءُ المدفونُ داخلكَ منذُ الأزلِ قد ظهرَ وأخيرًا، بعدما وصلتَ إلى نقطةٍ لا رجعةَ فيها..

بعدما أصبحتَ روحًا تائهةً فقدَتِ الرّغبةَ، ونسيَت ماهيةَ الشّعورِ، وانطفأت شعلةُ الحياةِ داخلها..

صوتٌ خافتٌ للغايةِ، ولكن إذا أذعنتَ لهُ فسوفَ يُصبحُ هو الصّوتَ المُهيمن داخلكَ، وغالبًا عليك!

جميعنا ردّدنا عندما استصعبت علينا الحياةُ، خاصّةً في منتصفِ أيامِ المُراهقةِ، أنّنا قد يَئسنا من حالنا هذهِ ونتذمّرُ بأمورنا التّافهةِ، راجين الموت!!

ولكن جميعنا يعرفُ أنّها كانت كلمةً عابرةً في وقتها؟؟

فلو كانَ الموتُ حقًا ما نرجوهُ، وظهرَ أمامنا في لحظتها، لنَفرّنا منهُ كما تَنفرُ المَواشي من فكّ الذّئاب!

ليسَ بتلكَ السّهولةِ على الرّوحِ أن تتقبّلَ الموتَ أبدًا..

ولكن ماذا لو ظهرَ الموتُ وقتها حقًا، وفاجأنا في حينها؟؟

ماذا لو يَئست روحُ أحدهم، المُتعلّقة في ذكرياتِ الماضي، دونَ المُضيّ قُدمًا، وأصبحت كالمَخالبِ الحادّةِ، تُمزّقُ روحهُ أينَ ما ذهبَ وارتحَل؟؟

وارتجّت الموتَ في لحظةِ غضبٍ وكرهٍ لحاضرها،

واشتياقها لماضيها..؟!

ماذا لو تحقّق ما كانت ترجوهُ تلكَ الرّوحُ التّائهةُ، ونالت خلاصها

الوحيد على ادّعائها، ومَهربِها من مُعاناتها؟؟

هل عندما تنالُ تلكَ الرّوحُ مُرادها، أستسعَد؟

أم ستندَم!

لا أحد منّا يعرفُ ذلك، ولكن ماذا لو؟؟ فقط **ماذا لو؟؟**

استطعنا معرفةَ الإجابةِ؟.

ستأخذنا صفحاتُ هذا الكتابِ في رحلةٍ بطلها سحاب..

اللذي تحقّقت أمنيتهُ، وبدأت بعدها رحلتهُ الغريبة جدًا،

في العالمِ الآخر؟

أجل كما قرأتم، في العالم الآخر..

{قصّةُ بطلٍ، ماتَ في بدايتها}.

قصّةٌ لكم لتُحدّدوا أكانَ بطلها هو أم ضحيّتها..؟

لَطالما أحببتُ الوُرودَ المَيّتة..

فَهي تُذكّرني دائمًا أنّ الجمالَ يَكمُنُ في المَوتِ أيضًا.

الفَصلُ الأوّل..

"اللّعنة!"

"في مدينة ما في مكانٍ ما في عالمٍ ما"

- "سحاب!! ألم تستيقظ بعد؟"

- "ما الذي تُريدينه منّي يالهي، لقد قلتُ لك لا أريد الذهاب!!"

- "بُنيّ أرجوك، عليّ الذهاب إلى المشفى وبسُرعة وإلا سأتأخر عن موعدي، أرجوك يا بنيّ!"

أجابت والـدة سحـاب تصـرخ من الدور الأرضي للمنـزل بصـوتها المَبحوح..

وهناك إذا به ينزل من على الدرج مُشمئزًّا منها يصرخ بغضب!!

- "ألم تسمَعيني أيتها العجوز؟!

قلت لا أريد الذهاب معك!!"

- "ولكن يا بني أرجوك فليس لديّ أحد سواك؟!"

وهناك استَوى أمامها وأخذ ينظر إليها بكرهٍ غير مبرّر!

وقال مرتديا حذاءه ليخرج..

- "اذهبي لوحدك"

- "سحاب أرجوك يا بنيّ!" أجابت والدته شهد ونظرتها امتلأت بالعِتاب المحبّ تجاهه..

ولكن الأخير لم يرضَخ لتلك النظرة وقال بنبرة مُقرِفة..

- "لا تناديني بهذا الاسم!!

أنا لم أعد ابنًا لكِ أيتها الكاذبة، لا أستطيع الانتظار حتى أغادر المنزل المُوحِش هذا، أتمنى أن تَموتِ—

وقبل أن يكمل كلامه توقف قليلا وهو يلمَح تلك الدّمعة تُغادر عينَ أمّه الباكية..

وأنهى كلامه بتلك الأمنية التي لم يعلم ثقلها أبدا..

- "أرجو أن أموت أنا وأتخلّص منك تماما"

- "سحا—.

ولكن الأخير قاطعَ والدته، التي كانت على وشك عِتابه بتلك العينين الغاضبتين، وأخذ يرتدي مِعطفَه الأبيض وقبل أن يضربَ الباب خلفه،

أخذ ينظر إلى صورة أبيه فوق طاولة الاستقبال بجانبه، بنظرة مؤلمة ثم اختفى.

أما والدته شهد رمادية الشعر، وقصيرة القامة، ذاتِ الوجه الناعس الحزين..

كانت واقفة بيدها تَرتكي على طرف الدّرَجِ وقد استقرّت تلك الدمعة الواحدة على خشب منزلها الواسع الكبير.

دمعةٌ لم تكن من أجله!

فعيناها كانت تشكي ألم وجعها البدنيّ الذي لا يُطاق..

أما قلبها فكان يبكي سرًّا على قطعة قلبها الذي على وشك أن تفقده إلى الأبد..

أم عليّ القول، أنّها فقدتهُ منذُ ذلكَ اليوم.

واقفةً تَرتكي بيدها على جدران المنزل، وقلبها ينبض بقوة مخيفة!

وأخذت تتنفسُ بسرعةٍ جنونيةٍ، تحاولُ فيها التقاط أنفاسها القصيرةِ المتقطعةِ بِكُلِّ ما أُوتيَت من قوة..

وفجأة!!

إذا بها تسقطُ أرضًا تَحبُو اتجاه هاتفها حتّى وصلت إليهِ بشقّ الأنفس!!

وأخذت تطلبُ النّجدةَ وبسرعةٍ قبلَ فواتِ الأوان..

وعندما فعلت ذلك، بدأت تفقدُ وَعيَها شيئًا فشيئًا وهي تُرددُ اسم ابنها الوحيدِ ذي العينينِ السّوداوَين الواسعتَين.

- "سح— سحاب.. ابني——.

ظلامٌ دامس.

"سحاب"

شابٌّ يبلغُ من العمرِ سبعَ عشرةَ عامًا..

ذو عينين سوداوَين متلألئتينِ كتلكَ النّجومِ في أحلكِ الليالي..

وصاحبُ غمّازتينِ بارزتينِ، تزينُ تلك الخدّين وذلك الوجهَ الناعم الجميل..

وشعره الأسود القصيرُ كالحرير، زادَ من جمالهِ وحدّةِ عينيهِ البرّاقتين..

طويلُ القامةِ قليلًا، عريضُ الكتفينِ بشكلٍ يتناسقُ مع بُنيةِ جسدهِ الجذّابِ، وطولهِ الأنيق.

وحيدًا يمشي إلى وجهةٍ غيرِ معلومة..

تائهًا غاضبًا..

مُتسرعًا طائشًا..

كارهًا مُستفزًا مُتقززًا من حياته!!

يمشي بينَ بناياتِ تلكَ المدينةِ ذاتِ الأبراجِ العالية..

والغيومُ الرّماديةُ تلامسُ ناطحاتِ السّحابِ تلكَ مُداعبة..

وأصواتُ المدينةِ المُزعجةِ زيّنت مسامعهُ وأطراف تلكَ المدينةِ الشّبهِ نائمة..

والشّمسُ على أعتابِ ذلكَ البحرِ عن يمينهِ مُشرقة..

@ART_OF_BOOK

انقضى من الوقتِ ما انقضى وفقدَ الإحساسَ بالوقت.

وإذا بهِ يجدُ نفسهُ داخلَ حيّ ما، وهو يشاهدُ الأطفالَ يودعونَ آباءَهم

وأمّهاتهم بتلكَ الأحضانِ والقبلاتِ الكثيرة..

ويتذكرُ حياتهُ السّابقةَ ويُقارنها بهذهِ المَريرة!!

والدهُ الذي كانَ كُلَّ شيءٍ بالنّسبةِ له..

كانَ عالمهُ وحياته..

كانَ بطلهُ الأقوى، وملجأهُ الأوحد، صديقهُ الأوفى ومعلمهُ الأذكى..

كانَ كُلَّ شيءٍ في حضورهِ مختلفًا!

تلكَ الابتسامةُ التي كانت تصنعُ يومهُ عندما يُوقظه..

وذلكَ الحُضنُ الدّافئُ قبلَ نومهِ، وقبلةٌ بها يُسعده..

وتلكَ الكلماتُ التي بها كانَ يؤانسُ بها حزنهُ..

والعشاءُ المليءُ بالضّحكات..

والمقالبُ التي كانا يَتواليانِ بها على بعضهما.

تدفّقت الذّكرياتُ المؤلمةُ واحدةً تلوَ الأخرى، ثمّ أعرضَ عنها غاضبًا،

وهمّ في طريقهِ راحلًا، وهنا رنّ هاتفه!

رقمٌ غريب؟

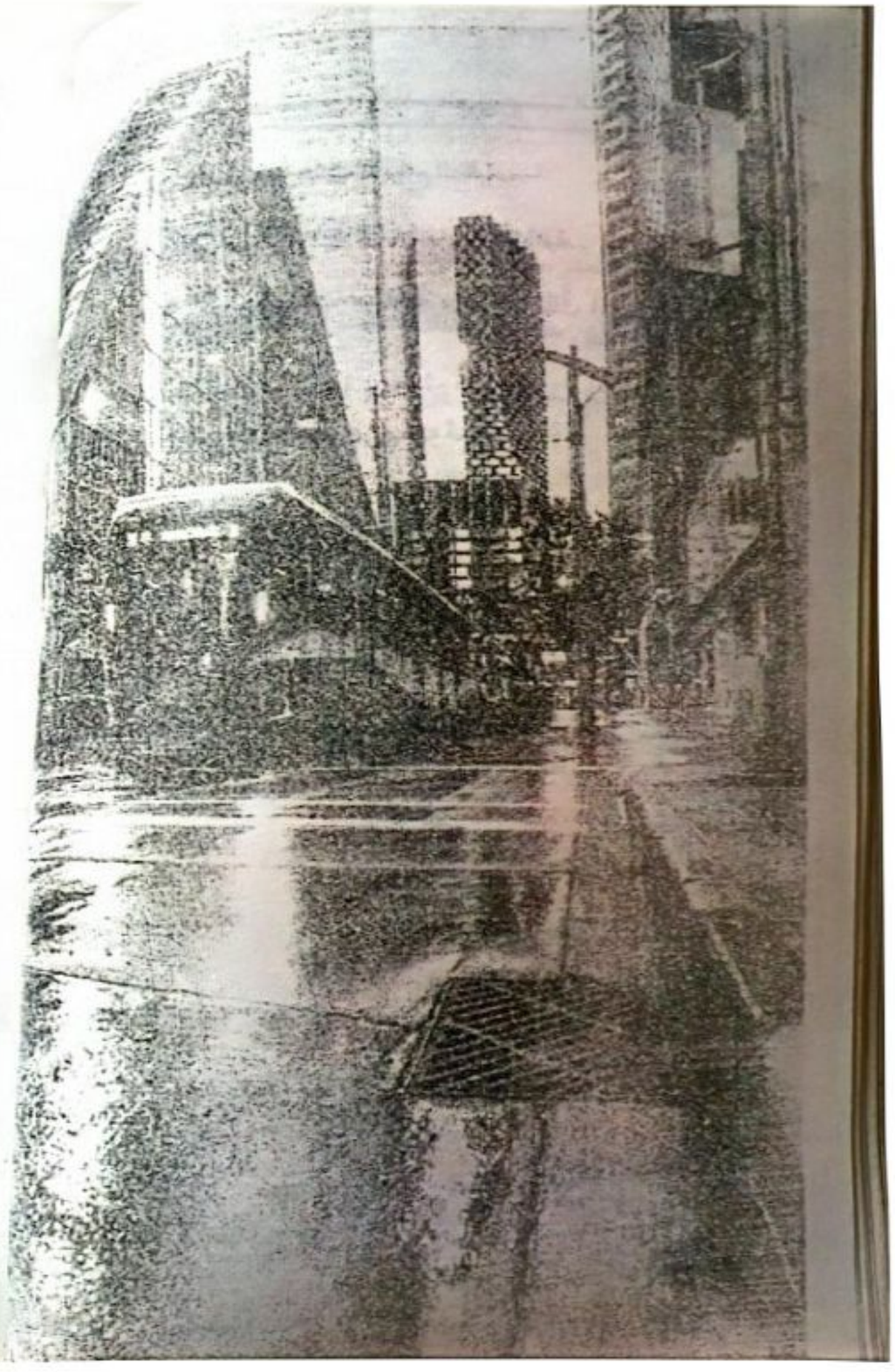

أخذَ يتساءلُ بينَ نفسهِ: من المتّصِل؟!

الرّقمُ أتى من هاتفٍ أرضيّ، وهذا ما زادَ من استِغرابه؟

وقالَ مُقطّبَ الحاجبين..

- "من هذا الذي ما زالَ يمتلكُ هاتفًا أرضيًا؟؟"

وأكملَ قائلًا بعدما أجابَ الهاتف..

- "من معي؟"

- "أهلًا، هل هذا سحاب ابنُ شهد؟"

- "نعم أنا سحاب من معي؟"

- "رقمكَ مُسجلٌ في ملفّ والدتك، كجهةِ اتّصالٍ في حالات الطّوارئ"

- "ماذا ما الذي حصل؟". أجابَ سحاب بقلق!

- "عليكَ القدومُ إلى المشفى بشكلٍ عاجل"

- "حسنا!!". وأقفلَ هاتفهُ بسرعة، ومن هناكَ بدأ يبحثُ عن سيارةِ أجرةٍ هنا وهناك، رافعًا يديه ليلفتَ انتباههم.

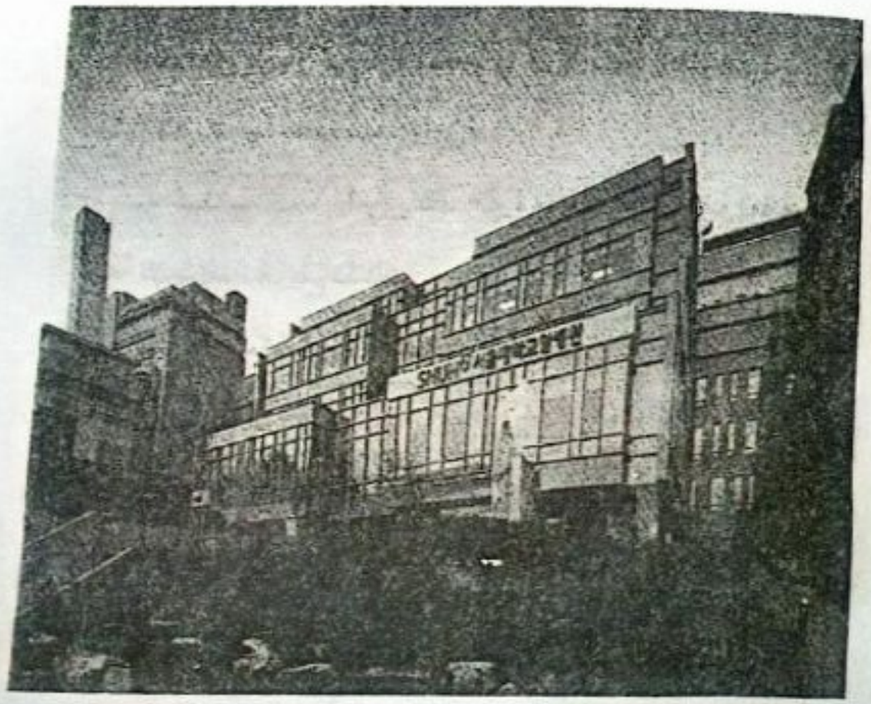

توقفت سيارةُ الأجرةِ أمامَ بوابةِ المشفى وأسرعَ خارجها سحاب، وعلاماتُ القلَق ملأت وجهَه.

يمشي بسرعةٍ تكادُ تكونُ ركضًا، يتَحاشى مُتجاوزًا تلكَ الحشود الكثيرة أمامه.

وعندما وصلَ إلى مُوظّفة الاستِعلاماتِ مُحاولًا التقاطَ أنفاسهِ المُتقطّعةِ الكثيرة، وجدَ خادمَ قصرهم (رامي).

- "سيد سحاب" بدأ رامي بتلكَ النّبرةِ الهادئة، ولكن نظراتهُ القلقةُ اتجاههُ كانت مُعاتبةً رُغمَ ذلك!

- "ما الّذي حدث؟". أجابَ سحاب يتلفّتُ بعينيهِ يمنةً ويَسرَة، يبحثُ فيها عن والدته..

- "إنّها في غرفةِ العنايةِ المُركّزة، ولكن لم يسمحوا لي بالدّخولِ لأنّي لستُ فردًا من العائلةِ يا سيدي.."

ولكن سحاب لم يلقِ لهُ بالًا، واتّجهَ مُباشرةً بينَ ممرّاتِ المشفى، إلى الغرفةِ المَعنيةِ بعدما أخبرتهُ بها ملاكُ الرّحمة.

وعندما وصـــلَ إلى الغُرفةِ تلكَ وقبلَ أن يدخلَ، خرجَ طبيبُ العائلةِ (فادي) من الغرفةِ، بردائهِ الأبيضِ حاملًا بيدهِ ملفّ والدتهِ ونتائجَ تحاليلها..

- "أيّها الطّبيب ما الّذي حدث؟". بدأ سحاب بنبرةٍ قلقة..

- "علينا إجراءُ المزيدِ من الفحوصاتِ للتأكّدِ من حالتها، ولكن التّحاليلَ الأوليّة تشيرُ إلى—

توقّف الطّبيبُ قليلًا، وراحَ ينظرُ بعينيهِ العَطوفةِ لعينيّ سحاب القلقة، وقالَ بصوتٍ هادئٍ مُراعيًا بحزن:

- "تشيرُ التّحاليلُ الأوليةُ إلى أنّ هناكَ احتماليّة كبيرةً أنّهُ قد عاد.."

وهنا ترسّـمت علاماتُ الصّـدمةِ على محيّا وجههِ عندما أنهى الطّبيبُ، وقال:

- "هناكَ احتماليةٌ كبيرة، أنّ سرطانَ الرّئةِ قد عاد يا سحاب"

- "أيّها الطّبيب هل أنتَ مُتأكّد؟!". أجابَ سـحاب مُشـككًا بصـوتٍ عالٍ!!

- "سـنجري المزيدَ من الفحوصـاتِ عندما تسـتيقظ، ولكن كما قلت، التحاليلُ والمؤشّراتُ كُلّها تشـيرُ لذلك، وقد أجرينا الفحوصـاتَ أكثرَ من مرّة"

قابلَ تلكَ الكلمات صمتٌ من سحاب، قابلتْه لَمسةٌ على كتفهِ من الطّبيب وأنهى الأخيرُ مُغادرًا:

- "سـحاب عليكَ البقاءُ ومسـاندتها، سـتكونُ المرحلةُ صـعبةً جدًا بالنّسبةِ لها"

لم يعرف سحاب ما الّذي يفعلهُ أبدًا، وأخذَ يخطو خطوتينِ حتّى أقبلَ على النّافذةِ المُطلّةِ لغرفةِ والدتهِ وهناكَ رآها مُمدّدةً لا حولَ لها ولا قوّة..

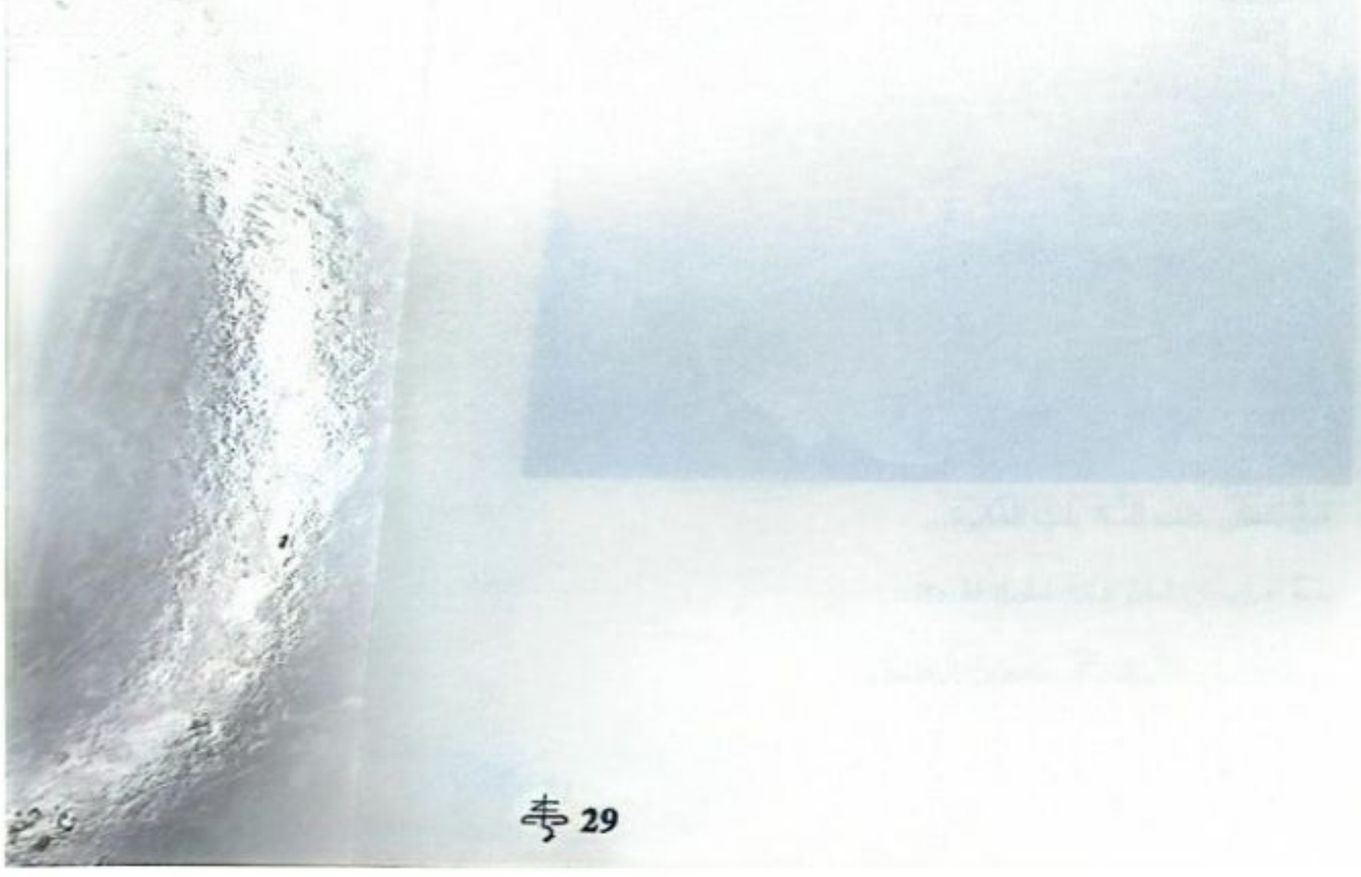

مُمَدّدَةً على السّريرِ نائمةً، ووجها مُترسمٌ بتلكَ الابتسامةِ الصّغيرةِ، وفي عالمِ الأحلامِ سرَت.

رُبّما عالمُ الأحلامِ هو المكانُ الذي فيهِ تنعمُ بتلكَ الحياةِ السّابقة..

الحياة التي كانت فيها أسعدَ أمٍّ في العالم..

الحياة التي تدمّرت تمامًا بسببِ فعلتها تلك، وخسرت بسببها حُبَّ ابنها إلى الأبد..

الحياة التي انتهت قبلَ ٦ سنوات.

ورحلَ بسببها طليقها إلى الأبد، وحرمت ابنها حنانَ أبيهِ حتّى هذهِ اللحظة..

رُبّما في أحلامها ما زالَ ابنها يناديها بأمي أمي!!

وليسَ أيّتها العجوزُ أو أيّتها الكَاذِبة!

رُبّما أصبحت مُتعلّقةً بتلكَ الأحلامِ حتّى كرهت واقعها وحياتها هذهِ كما ابنها.

ابنٌ مُتعلّقٌ بتلكَ الذّكرياتِ الغَابرة..

وأمٌّ أصبحت تحلمُ بتلكَ الحياةِ الهادئة..

يبغضانِ هذهِ الحياةَ بِكُلِّ ما تعنيهِ الكلمة..

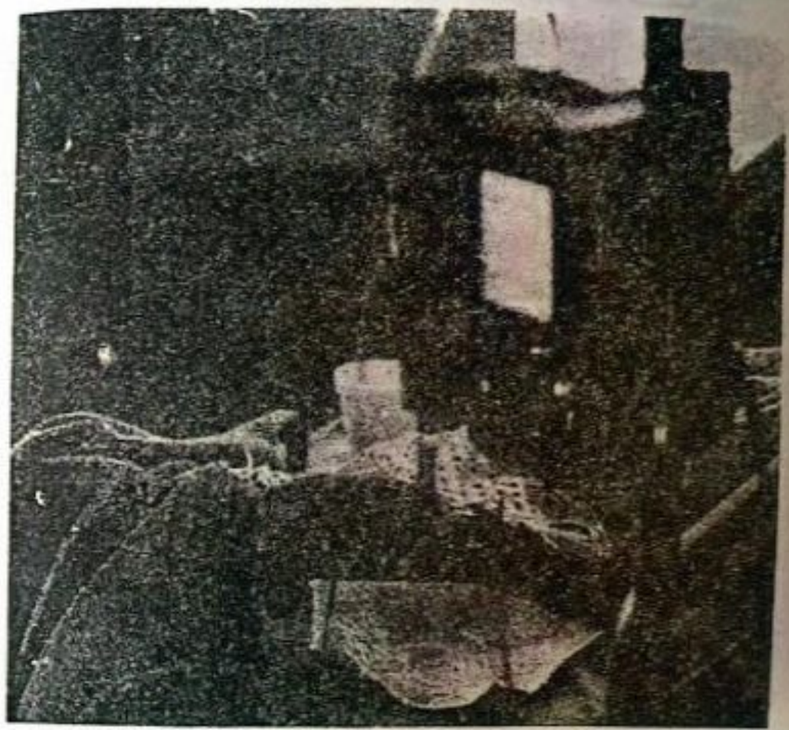

ولكن يتشاركانِ حَنينَها لتلكَ الحياةِ الدّافئة..

أرواحٌ تائهةٌ لا تدري أينَ يكمنُ واقعها؟

وقلوبٌ تكابرُ بحبها!

وأحضانٌ تتلهّفُ لبعضها، ولكن أصبحت الأحضانُ الدّافئةُ تلكَ مُجرّدَ

ذكرى من الماضي..

ذكرى غابرة..

ذكرى وحسب.

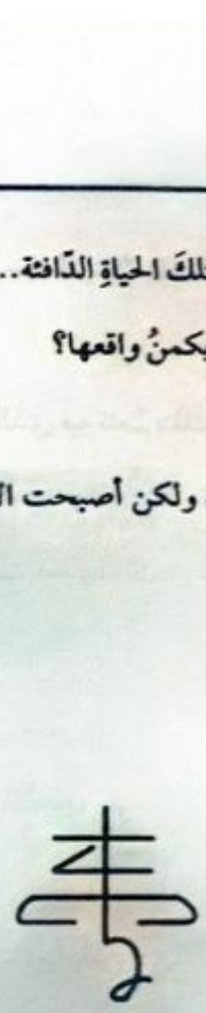

لَطالما كَرهتُ الأحضانَ بعدَ رحيلِك..

كرهتها ندمًا، لأنّي لم أعلم أنّكَ سترحلُ بعدها إلى الأبد..

لوكنتُ أعلم، لأحتَضَنتكَ وكأنّهُ لا وجودَ للغد.

الفَصلُ الثاني..

"لَمسَةٌ دافئَة"

ممسكةً بيدِ ابنها الذي غَفا بجانبها ولم يترك يدها حتّى غلبهُ النّوم..

تنظرُ إليهِ مُبتسمةً والتّعبُ قد أهلكَها تمامًا، ونَظمُ أنفاسها المُتقطّعةِ كانَ

كَحدُّ السّكينِ على قلبها..

تتلمّسُ يدهُ بأصابعها الباردةِ، وتتذكّرُ متى كانت آخرَ مرّةٍ مسكت يدَ قُرّةِ

عينها بهذا المَلمَسِ الدّافئ..

متى كانت آخرَ مرّةٍ كانَ قد اقتربَ منها بهذا القدرِ وكُلّهُ حِنيّةٌ، دونَ أن

ينفرَ منها أو يَرمقَها بتلكَ النّظرةِ التي أصابت قلبها المُمزّقَ في كُلّ مرّة!

نظرةٌ مزّقت روحها تمامًا كُلّ مرّةٍ تَحُطُّ عيناها عليهِ وهو يتجاهلها..

متى كانت آخرَ مرّةٍ لم يُزح عينَيه عنها، ونظرَ إليها بابتسامة؟!

متى كانت آخرَ مرّةٍ حظيت بهذهِ اللحظةِ الهادئةِ معهُ في غُرفةٍ دونَ أن

يتجادلا ويرفعا صوتاهما على بعضهما أو يغادرَ مُشمئزًّا منها بِكُلّ

غضب!

متى ومتى ومتى...!!!!

وبينما كانت مُنغمسةً في أحلامِ اليقظةِ كذلكَ مرّةً أخرى، إذ بفَتاها يستيقظُ بِكُلِّ هدوءٍ حتّى استقامَ ظهرهُ على كرسيهِ بجانبِ سريرها، وهناكَ حَطّت عينهُ في عينيها الحنونةِ اتجاهه، وقبلَ أن تقولَ هي شيئًا، إذا بهِ يستشعرُ تلكَ اللمسةَ الدّافئةَ على يده،

وراحَ يُزيحها بسرعةٍ، وأشاحَ بصرهُ عنها تمامًا!

- "سحاب بنيّ!" بدأت شهد تَرتجي لمستهُ مرّةً أخرى!

ودونَ حتّى أن ينظرَ إليها، أجابها وهو يتلفتُ مُزيحًا نظرهُ عنها، بنبرةٍ أرادَ منها إظهارَ عدمِ اهتمامهِ، ولكنّ صوتهُ وتَعابيرَ عينيهِ فضحتهُ تمامًا..

- "كيفَ تشعرين؟"

ابتسمت والدتهُ بشدّةٍ وهيَ تسمعُ وأخيرًا ابنها يسألُ عن حالها، وكأنّها تقولُ في سرّها:

- *هل تطلّبَ الأمرُ منّي أن أقتربَ من الموتِ كي تسألَ عن حالي يا بنيّ!*

وعندها أجابتهُ بِكُلِّ صَوتٍ مُحبٍّ ونَبرةٍ حنونةٍ دافئة..

- "أنا بخير يا حبيب—

وقبلَ أن تُنهي إذ بها تبدأ بالسّعالِ بقوّةٍ مُخيفةٍ جدًا!!

وراحت تُغطّي فمها بيدها وتحاولُ التّنفس، ولكن لم تستطع التّوقفَ عن السّعالِ أبدًا!!

وأصابت عينيها عينا ابنها الذي لم يدرِ ما يفعل؟!

خاصّةً وهو يرى الدّمَ يسيلُ من يدها بِشكلٍ جنونيٍ ومخيف!!

- "سحا—

حاولت شهد، ولكن دونَ فائدة..

وإذا بجهازِ مُراقبةِ العلاماتِ الحيويةِ يُصدرُ أصواتًا وبقيّةُ أجهزةِ تتبّع حالةِ المريضِ كذلكَ بألوانها الحمراءِ والصّفراءِ وأصواتها المُزعجة!!

وهناكَ إذا بهِ يخرجُ من الغرفةِ مُسرعًا يصرخُ بأعلى صوته..!!

- "أيّها الطّبيب!!!!"

وإذا بملائكة الرّحمةِ يُقبلون مُسرعين داخلَ الغُرفةِ والطّبيبُ فادي من خلفهم مُسرعًا!

ويدؤوا بإجراءِ تدابيرِ الطّوارئ وبسرعة!!

أما سحاب فظلّ واقفًا على عتبةِ البابِ مكانهُ، دونَ أن يرفّ لهُ جفنٌ، لا يدري ما يفعل!!

- "سيد سحاب!!". أقبلَ خادمُ القصرِ رامي مُسرعًا وأخذت أعينُ سحاب تقودُ عينَيه إلى داخلِ الغرفةِ ووقفَ الاثنانُ في ذهولٍ مُخيفٍ وهما يُشاهدانِ تلكَ القماشةَ البيضاءَ التي كانت تُغطّي والدتهُ وقد غمرها الدّمُ الأحمرُ، وكأنّ وريدَ أحدهم قد تفجّر فوقها!!

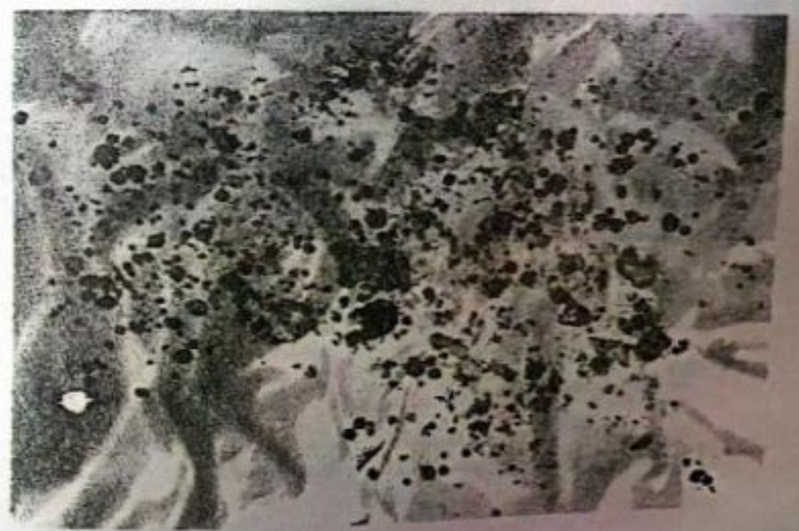

وفي لحظةِ خوفٍ، بدأ سحاب يُرَدّدُ بصوتٍ مهزوزٍ ونبرةٍ خائفةٍ مُتردّدة!!

- "رامي.. رامي....!

أعطِني مفاتيحَ السيّارة!!"

- "ماذ...؟!!" أجابَ را—

- "قلتُ أعطِني مفاتيحَ السّيارةِ بسرعة!!!" صرخَ سحاب بوجههِ مُرتجفًا، وعيناهُ ذرفت تلكَ الدّمعةَ الواحدةَ في خوف!!

وما كانَ من رامي إلّا أن سَلّمهُ المفاتيحَ مُباشرةً دونَ قولِ شيء.

وغادرَ سحاب المشفى مُترنحًا يمنةً ويسرةً يبكي بغضب!.

أدارَ مُحرّكَ السّيارةِ، وراحَ مُغادرًا مَواقفَ المشفى في عجلٍ وسرعةٍ جنونية، والمطرُ أخذَ يسقطُ مُنهمرًا.

ممسكًا بمقودِ السّيارةِ بكلتا يديهِ مُتجاوزًا بسرعتهِ الجنونيةِ السّياراتِ أمامه!

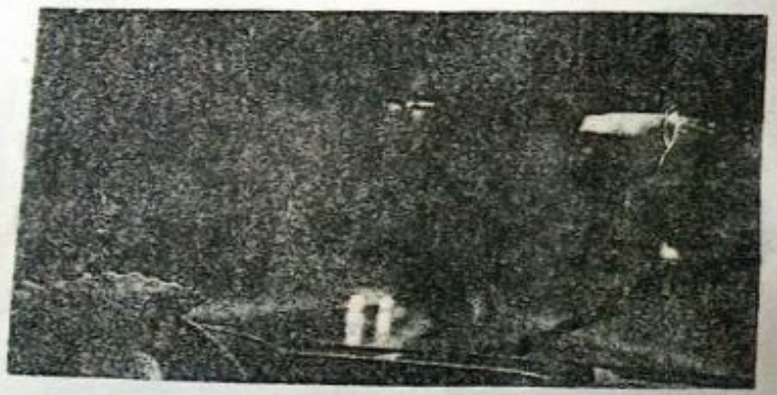

والدّموعُ تصبّ قطرةً قطرة من عينيهِ كما تسقطُ حبّةُ المطرِ من على ورقِ الشّجر..

وبدأ يصرخُ ويضربُ بيدهِ على مقودِ السّيارةِ كما المجنونِ تمامًا، لا يدري ما يفعل!!

ودخلَ في حالةِ توترٍ، وجسدهُ يَرتعشُ بشكلٍ مُخيف!!

حتّى كادَ يصطدمُ بالسّياراتِ عن جانبَيه أكثرَ من مرّةٍ والنّاسُ تدقُّ أبواقَها غاضبة؟!!

ولكنّهُ أخذَ يفتحُ النّافذةَ وبدأ يشتمُ هنا وهناكَ، وفي تلكَ اللحظةِ رنّ هاتفه، أدخلَ يدهُ في جيبهِ وعينهُ على الطّريقِ تارة، ويشتمُ عن يسارهِ تارة،

ولمّا أخرجَ هاتفهُ إذا بهِ خادمُ القصرِ رامي..

وبسرعتهِ الجنونيةِ المُتهورةِ أجابَ الهاتفَ، وهو يصرخُ بصوتٍ عالٍ!

- "ماذا؟!!!"

- "سحاب والدتك لم تكفّ تسألُ عنك، أينَ أنت؟!!!"

- "أن—

وقبلَ أن يُكملَ إذا بتلكَ السّيارةِ تتوقّفُ أمامهُ فجأةً وأخذَ يافثُ مِقودَ السّيارةِ بِكُلِّ قوتهِ إلى اليسارِ لتفاديها ولكن!!!

انحرفَ عن مَسارهِ بشكلٍ جنوني، وفقدت السّيارةُ توازنها، وارتفعت عَجلتا السّيارةِ اليُسرى كلتاهما وتبعتهما اليمنى كذلك، وراحت تتقلّبُ عشراتِ المرّاتِ حتّى بدأت أجزاءُ السّيارةِ تتناثرُ في كُلِّ مكان...

عجلاتُ المركبةِ طارت في الهواء...

وهيكلُ السّيارةِ انكمشَ وتكسّر...

وزجاجُ السّيارةِ من الجهاتِ الأربعِ تناثرَ في كُلِّ الجهات...

وما زالت السّيارةُ تتقلّبُ حتّى طارَ من النّافذةِ الأماميةِ سحاب، وحلّقَ في الهواءِ عاليًا وسقطَ على الأرضِ بِكُلِّ قوّة و.. .. مات..

لو تَعلمينَ كم أصبحتُ بعدكِ رُوحًا تَائهةً بحقّ!

وجودكِ كانَ مُهمًا..

ولكنّي حُرمتُ منهُ.

@ART_OF_BOOK

الفَصلُ الثالث..

"الأمنيَة!"

في مكانٍ ما خارجَ سيطرةِ الزّمانِ والمكان..

في مكانٍ لا تَطؤهُ إلّا تلكَ الأرواحُ التّائهةُ كي تعبرَ إلى وجهتِها الأخيرة..

مكانٌ رُغمَ جمالِهِ، ولكن يُعدّ الوجهةَ التي لا تريدُ أيّ روحٍ أن تطأها أبدًا..!!

مكانٌ يحبسُ الأنفاسَ بحقّ، وهذا ليسَ تعبيرًا مجازيًا!!

- {أين أنا؟!!}.

أفاقت روحُ سحاب، ولكن لا ترى حولها سوى ذلكَ الظّلام الدّامس!

ظلامٌ لم يطمسِ النّورَ فقط، أو الرّوائحَ كذلك!!

بل حتّى صَدى صوتِ تلكَ الرّوحِ التّائهةِ لم تلقى صداها، مِمّا زادَ من رُعبِ الموقفِ المُخيفِ ذاكَ تمامًا!

وعندها وقفت الرّوحُ، تحاولُ إيجادَ أيّ شيءٍ يمسّ الواقعَ حولها، ولكن...

لا شيءَ سوى ظلامٍ دامس..

ظلامٍ موحشٍ، وانعدامٍ تامٍّ للوجود.

وبينما تلكَ الرّوحُ التّائهةُ تمشي داخلَ ذلكَ الظّلامِ العظيم، إذا بصوتِ خطواتِ أحدهم تمشي خلفها!

لالا..

بل من أمامها!

مَهلًا بل من يَسارها؟

- {من هناك؟}. صرخت الرّوحُ تبحثُ عن مصدرِ تلكَ الخطواتِ، ولكن كانَ هناكَ شيءٌ غريبٌ بشأنِ تلكَ الخطوات؟؟!

هي خطوات شخصٍ واحد، ولكن يبدو وكأنّهُ يمشي في كل مكانٍ في آن واحدٍ في تَناغمٍ تامّ!

- {قلت من هناك؟!}. أعادت الرّوحُ تسألُ، وعندها إذا بيدِ أحدٍ ما تلمسُ كتفها..!!

- {من أنت؟!!}. صرخت الرّوحُ تلتفتُ بسرعة.

انتظر هل يمكنُ لمسُ الرّوح؟!!

بالطّبع لا، ولكن ذلكَ الشيء يستطيعُ فعلَ ذلكَ، وأكثر فهو...

- {أنا هي نهايتك يا سحاب..}. أجابَ ذلكَ الغريبُ بصوتٍ دافئٍ وحنونٍ للغاية!!

وعندما أزاحَ يدهُ عن كتفِ سحاب، إذا بالفراغِ المُظلمِ حولهُ قد تَلألأ بتلكَ النّجومِ الكثيرةِ فجأة!!

فراغٌ عظيمٌ لا بدايةَ لهُ ولا نهاية!!!!

فراغٌ غطّتهُ تلكَ النّجومُ التي بدت كألماساتٍ ومجوهرات.

نجـومٌ لا حصـرَ لا أبدًا، وكأنّها حَبّـاتُ رَملٍ مُتـلألئةٌ انتثرَت حولهما، وتشكّلت على هيئةِ ألماساتٍ لامعة!

ولكن لم يكُن هذا فقط الغريب؟؟؟

فحتّى ما يفترضُ أنّها أرضٌ يقفانِ عليها، لم تكن حقًا أرضًا؟!!

- {يا إلهي؟!!!!!}. صرخَ سحاب، وهو ينظرُ أسفلهُ ولم يجد ما يقفُ عليهِ، وكأنّهُ يقفُ في الهواءِ مُعاندًا بذلكَ عظمةَ الجاذبيّة!

- {لا تقلق لن تقَع}. أجابَ ذلكَ الغريبُ ذو العينينِ الرّماديتينِ مُبتسمًا.. عينانِ رماديّتانِ حادّتانِ مُخيفتان، ولكن حنونتانِ وتبُثّان الرّاحةَ والطّمأنينةَ في روحِ كُلِّ من حَطّت عيناهُ عليهما بشكلٍ غريب؟؟!

شعرٌ أبيضُ كبياضِ الثّلج..

يملكُ فكّينِ بارزين، ممّا جعلَ من ملامحِ وجههِ حادّةً للغاية.

طويلُ القامةِ، عريضُ الكتفينِ بشكلٍ يتناسقُ معَ بُنيةِ جسدهِ الجذّابِ..

وبمعطفهِ الأسودِ الطّويلِ ذاكَ، زادَ من حِدّةِ جمالِ عينيهِ وطولهِ الأنيق.

- {من أنت؟؟؟!}. قالَ سحاب خائفًا مُبتعدًا بخطواتٍ قليلةٍ إلى الخلفِ بتردّد..!

عندها أخذَ الغريبُ ذاكَ يمشي في المكانِ مُتأملًا، واضعًا يديهِ داخلَ معطفِه، وابتسمَ قائلًا:

- {المكانُ هنا رائعٌ حقًا، أليس كذلك؟ أدعوهُ بـ..

مهبطِ النّجوم..}.

ولكن سحاب لم يجبهُ، وأخذَ يرمقهُ بتلكَ النّظراتِ القلقةِ الخائفة!!

- {إهه.. لا تقلقل ليسَ الأمرُ وكأنّني سأقتلك!}.

ولكن سحاب لم يفهم ما الّذي يقصده؟!

- {حقًا؟ هيّا يا رجل لقد كانت أفضلَ طُرفةٍ لديّ حتّى الآن!!}. قالَ ذلكَ الغريبُ مُتذمرًا بابتسامة..

...صمت...

- {حَسنًا حَسنًا، أنتَ ميّت}. أكملَ الغريبُ ملوّحًا بيدهِ اتجاهه..

- {ماذا؟!! أنا— ميت؟!}.

- {ها هل فهمتَ الطّرفةَ الآن؟!! إنّها جيّدة أليسَ كذلك؟!!}.

ولكنّ الأخيرَ ظَلّ واقفًا في مكانهِ يحاولُ استيعابَ الأمرِ، وعيناهُ بازغتانِ تمامًا في خوفٍ وذهول..!!

- {ماذا؟ لماذا تبدو حائرًا؟!}. قالَ الغريبُ مُقتربًا منهُ بصوتٍ هادئٍ وتغيّرت ملامحهُ من ملامحِ الظّريفِ إلى ملامحَ جادّة، ولكن هادئة ودافئة في نفس الوقت!

وأكملَ عندها بنبرةٍ واثقةٍ عندما استوى أمامهُ وأخذَ يرمقهُ بتلكَ النّظراتِ الحادّة..

- {ألم تكُن تلكَ أمنيتك؟}.

وفي تلكَ اللحظةِ تمامًا!!

عادَ وعيُ سحاب إليهِ، وتذكّرَ صباحَ ذلكَ اليومِ عندما تمنّى أن يموتَ ويختفي من ذلكَ العالم!

ولكن لم يعلم أنّ أمنيتهُ ستتحقّقُ بهذهِ السّرعة؟!

وأخذَ يُفكّرُ بينَ نفسهِ، ولكن لم يُطل التّفكيرَ كثيرًا حتّى قالَ بنبرةٍ فقدت الأملَ تمامًا، وكأنّهُ جسدٌ بلا روح..

لا مهلًا لم يعد لهُ جسد..

بل أصبحَ روحًا ميتةً بحقّ..

- {إذًا أنتَ هو الموت أليسَ كذلك؟}.

ابتسمَ الغريبُ مُوافقًا، وعيناهُ الحادّتانِ كانتا تَبعثانِ الدّفءَ والاطمئنانَ بشكلٍ غريب؟!

- {إذًا ماذا الآن..؟!}. أكملَ سحاب، وعيناهُ كانتا فاقدتينِ للأمل، فهو لم يعد يهتمّ لأيّ شيءٍ بعدَ الآن..

لقد نالَ مُرادهُ تمامًا كما تمنّى.

عندها ابتعدَ الغريبُ خطوتينِ للخلفِ، وقال:

- {هيا بنا..}.

- {إلى أين؟!}.

- {سنُشاهدُ فلمًا شيّقًا}. أجابَ الغريبُ مُبتسمًا، ثمّ استدارَ عنهُ، وراحَ يرفعُ يديهِ إلى تلكَ النّجومِ بِكُلِّ هيبتهِ، وكأنّهُ قائدُ أوركسترا على وشكِ بدءِ حفلٍ غنائي مهيب..!!

وكأنّ تلكَ النّجومَ من حولهِ هي آلاتهُ وجمهورهُ وموسيقاهُ، كُلّها في آنٍ واحد.

- {ماذا تفعل؟}. تساءَل سَحاب!

وعندها التفتَ الغريبُ قليلًا بابتسامةٍ ساحرة!!

ابتِسامة دبّت في قلبِ سحاب الرّهبةَ قليلًا بِشكلٍ غريب؟!

وفجأة!!

ضربَ الغريبُ يديهِ معًا، وأكملَ قابضًا عليهما للحظةٍ ثمّ...!!!

إذ بذلكَ البابِ الأسودِ القديمِ ذي النّقوشِ الغريبةِ أمامهما ظهرَ من العدمِ

فجأة!!

بابٌ وحيدٌ قائمٌ، لا يستندُ على شيءٍ أبدًا!

- {من أين أتى الباب؟ كيفَ فعلتَ ذلك!}. قالَ سحاب وعلاماتُ الرّهبةِ اعتلَت وجههُ الفضوليّ تمامًا!!

غمزَ لهُ الغريبُ بعينهِ الرّماديّةِ السّاحرةِ تلكَ، وقال:

-{... هيّا بنا}. ثم بخطواتٍ واثقةٍ اتجهَ نحوَ ذلكَ البابِ الأسودِ أمامهما..

وبيدهِ اليسرى أخذَ يفتحُ مِقبضَ البابِ، وإذا بأشعّةِ الشّمسِ تتسلّلُ إلى مَهبطِ النّجومِ ذاكَ الذي هُم فيه.

دخلَ الغريبُ من ذلكَ الباب، ولكن سحاب ما زالَ واقفًا في مكانهِ مذهولًا تمامًا دونَ أن يتحرّك!!

وهناكَ إذا بالغريبِ ينادي من داخلِ ذلكَ الباب الأسود..

- {ألن تأتي؟}. وعندها أدخلَ رأسهُ من طرفِ البابِ كي يُطمئنهُ بتلكَ الابتسامةِ الآسرة..

- {لا تقلق، ليسَ بابًا يؤدّي إلى الجحيمِ أو شيءٍ كهذا}.

عندها أقبلَ سحاب بخطواتٍ حذرةٍ حتّى وصلَ إلى البابِ، وبدأ يلتفّ حولهُ في استغرابٍ وحيرة!!

وأخذَ يهمسُ بينَ نفسهِ يتساءلُ بتلهّف:

- {كيف؟}.

رأى أنّهُ لا يوجدُ شيءٌ يكمنُ خلفَ هذا البابِ، ولكن عندما دخلَ من البابِ إذا بهِ داخلَ مشفى؟!!

- {ما الّذي يحدث؟ كيفَ وصلنا إلى هنا؟!}.

- {هيّا بنا، الأمرُ على وشكِ أن يبدأ}. أجابَ الغريبُ بملامحَ جدّيةٍ قليلًا.

الغريبُ ذو العينينِ الرّماديّتين والشّعرِ الأبيضِ والمِعطفِ الأسود..

وسحاب ذو العينينِ السّوداوينِ والشّعرِ الأسود والمِعطفِ الأبيض..

جَبًا إلى جنبٍ داخلَ ذلكَ المشفى ذو النّوافذِ العملاقةِ الشّفافةِ، وخيوطُ الشّمسِ الذّهبيةِ تَتَسَلّلُ مُغازلةً زواياهُ الكثيرة..

متّجهًا برفقةِ ذلكَ الغريبِ، لا يدري ما الّذي يحدث؟

وأينَ هم الآن..؟

وما الذي تخبّئهُ لهُ هذهِ الرّحلة..؟

وما الذي كانَ يقصدهُ الغريبُ بـ..

- {سنشاهد فلمًا شيّقًا؟!}.

كُلُّ شيءٍ لا يبدو منطقيًا، ولكن!!

لم تكن هذهِ سوى البداية...

فَكُلُّ شيءٍ على وشكِ البدء الآن..

وكُلُّ ما سبقَ لم يكن سوى....

نهايةُ البداية.

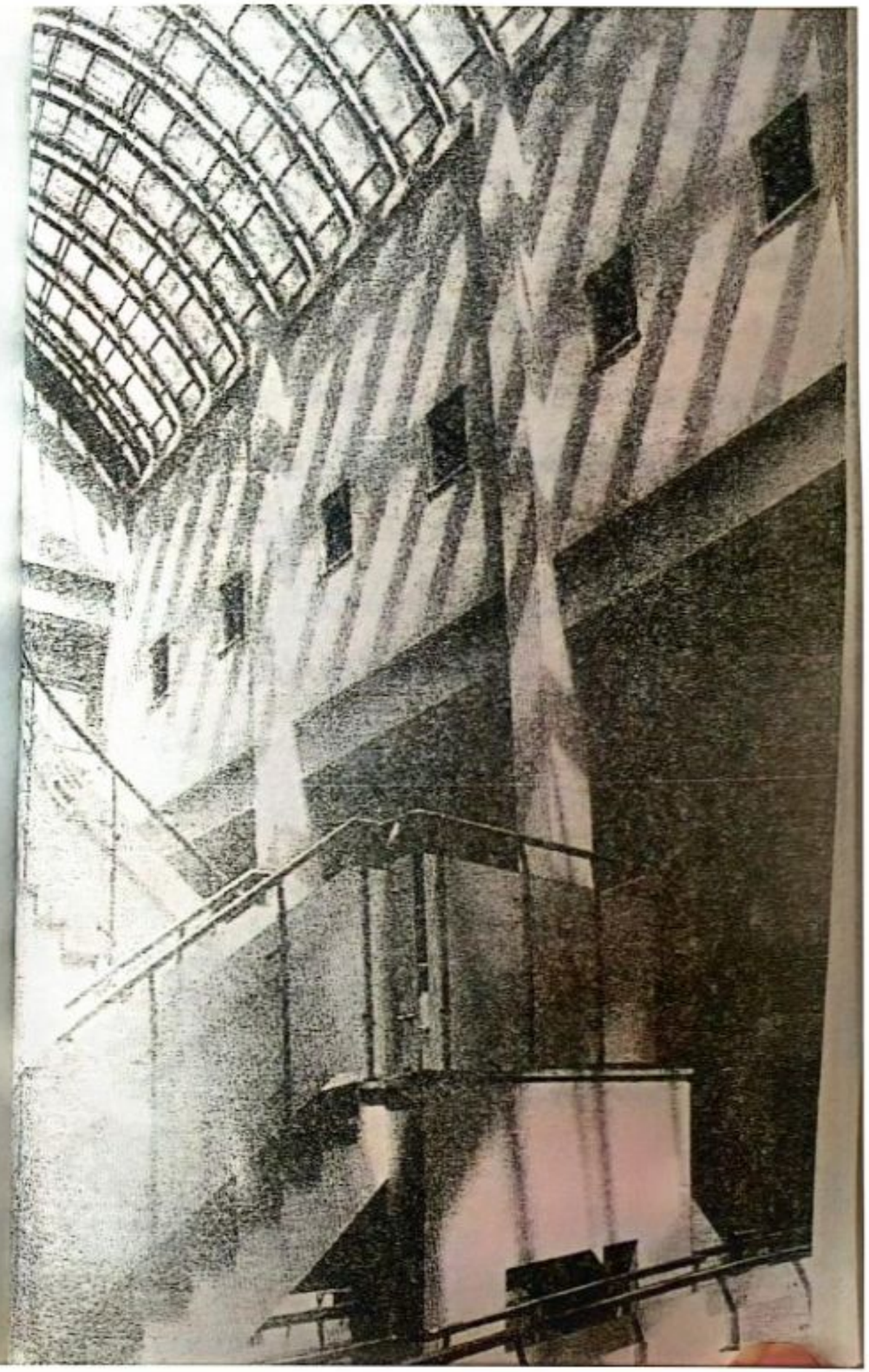

كم أودّ حقًا أن تُربّتي على رأسي، وتُخبريني
كم أنّكِ فخورةٌ بي!

الفصلُ الرّابع..

"التّهويدَة"

وفي طريقهما إلى غرفةٍ ما، داخلَ المشفى، لاحظَ سحاب شيئًا غريبًا قليلًا! الأجهزةُ وملابسُ النّاسِ وكذلكَ الصّورُ المُعلّقةُ، كانت قديمةً بعضَ الشيءِ بالفعل؟!

وكأنّهم عادوا بالزّمنِ للخلفِ عشراتِ السّنينِ تقريبًا!

وبعدَ دقائقَ معدودةٍ، توقّفَ الغريبُ أمامَ نافذةِ غرفةٍ ما، والصّراخُ كانَ قد اعتلى أرجاءَ المكانِ بشكلٍ مزعج!!

- {ماذا هناك لمَ توقّفت؟!}. تساءَلَ سحاب ؟!

- {انظر.. إنّهُ يحدث}. قالَ الغريبُ بصوتٍ هادئٍ..

وهناكَ ساقت عينا الغريبِ عينَي سحاب، إلى تلكَ الغرفةِ الضّيقةِ وهناكَ كانت الصّدمة!!

- {إنّها أمي؟؟؟؟}. أجابَ سحاب مصدومًا تمامًا، وعيناهُ جاحظتانِ من شِدّةِ ذُهوله؟!

- {مهما رأيتُ هذا المنظرَ فأنا لا أملُّ منهُ أبدًا}. قالَ الغريبُ وعيناهُ مُنصبّةٌ إلى والدةِ سحاب، التي كانت داخلَ غرفةِ حضانةِ الأطفالِ، ممسكةً بابنها سحاب، يبكي رفقةَ جميعِ الأطفالِ داخلَ الغرفةِ ومَلائكة الرّحمةِ يحاولنَ إرضاعَ الأطفالِ لإسكاتهم ولكن دون جدوى..

ورغمَ كُلِّ ذلكَ الضّجيجِ كانت شهد تُمسكةً بطفلها في حضنها، ولم تهتم لِكُلِّ تلكَ الجلبةِ وصراخِ الأطفال، بل وبدأت تُغنّي وتُرَدّدُ بصوتها الملائكيّ مُهمهِمةً على أنغامِ قطعةٍ موسيقيّةٍ ما.

London Bridge is falling Down

كانت تُهمهِمُ على أنغامِ هذهِ القطعةِ الموسيقيّة، حتّى هدأ ابنها سحاب تمامًا!

- {مهما رأيتُ هذا المنظرَ فأنا لا أملّ منهُ أبدًا حقًا..}.

أكملَ الغريبُ كلامهُ، وأضاف..

- {الأطفالُ همُ الحياةُ حقًا، وبدونهم لا لذّةَ للحياة}.

- {هذهِ أمي؟؟!!}. اعترضَ سحاب بصوتٍ مُتردّدٍ ويداهُ على النّافذةِ المُطلّةِ لغرفةِ الحضانةِ، وعيناهُ لا تتلامسُ جفونهما أبدًا من شِدّةِ استحالةِ الأمر!!!

وأكملَ غيرَ مُصدّقٍ ناكرًا مُستنكرًا لما تراهُ عيناه؟!

- {هذهِ أمي، ولكن..؟

ولكنّها صغيرةٌ جدًا هنا؟!}.

- {وذاكَ هو أنت..}. أجابَ الغريبُ مُبتسمًا، بصوتٍ دافئٍ هادئ، وعيناهُ لا تفارقُ ذلكَ المنظرَ الحابسَ للأنفاس..

مشهدٌ لن يملّ الغريبُ منهُ أبدًا!!

تُهمهِمُ على أنغامِ تلكَ القطعةِ الموسيقيّةِ المشهورةِ، وابنها بينَ يديها، حتّى هدأ جميعُ الأطفالِ بلا استِثناء!

ووقفت ملائكة الرّحمةِ بعدَ جُهدٍ وتعبٍ يُنصِتنَ برفقةِ الأطفالِ إلى ذلكَ اللحنِ الجميلِ، وصوتِ تلكَ الملاكِ السّاحر..

حتى سحاب لم يستطع تمالكَ نفسهِ عندما هدأت الغرفةُ وبدأ الجميعُ من حولهِ ينصتُ بهدوءٍ إلى تلكَ الهَمهَمةِ الخافتة..

أخذَ ينظرُ إلى أمّهِ للحظة، بدا وكأنّ كُلَّ شيءٍ حولهُ توقف..!

أخذَ ينظرُ إليها، ويتساءلُ متى كانت آخرَ مرّةٍ رآها بهذهِ السّعادةِ الغامرة؟!

وراحَ يبحثُ في ذكرياتهِ بحثًا عن ذكرى مُماثلةٍ ولكن دونَ جدوى..

فقد غمرهُ الغضبُ منها سنينَ طويلةٍ حتّى نسيَ كُلَّ شيءٍ تمامًا!

بدت كملاكٍ بعينَيها شَديدَتي الزّرقةِ تلك، وشعرها الأسود القاتمِ جدًا،

ما زادَ من حدّة لونِ عينيها الملائكية تلك..

وابتسامتها التي تثلجُ الصّدرَ على كُلِّ من رآها..

وصوتها الشّجي الدّافئِ والحنون!

صوتٌ جعلَ من تلكَ الكائناتِ الصّغيرةِ تُنصتُ بإمعانٍ إلى صوتها

الأمر.

توقّفَ سحاب ينظرُ إليها، وبدأ يُنصتُ بِتمعنٍ لذلكَ اللحن القديم

المَحفور في ذكرياته..

لحنٌ جعلَ من قلبهِ يتذكّرُ ومضاتَ حياتهِ السّابقة..

..ضحكات..

..حضنٌ دافئ..

..صوتٌ هادئ..

- {يا إلهي ما الّذي يحدث؟؟}. اشتكى سحاب لا يَدري ما الّذي يحدثُ

لهُ في حيرة؟!

- {لقد بدأت}. أجابَ الغريبُ مُبتسمًا..

- {ما الّذي بدأ—

وقبلَ أن يُكملَ سحاب كلامهُ، أحسّ بتلكَ الدّمعةِ تُفارقُ عينَيه هاربةً

فجأة!!

- {هل رأيت، لقد قلتُ لك، لقد بدأ الأمر}. أكملَ الغريبُ بابتسامةٍ

صغيرةٍ غريبةٍ، تحملُ خلفها سِرًّا ما؟!

- {ما الذي تقصده؟}.

- {هيّا بنا إلى الذّكرى التّالية}. أجابَ الغريبُ مُعرضًا عنهُ بمِعطفهِ

الأسود ذاك..

- {مهلًا ما الّذي تقصده؟}.

ولكن الغريبُ لم يُلقِ لهُ بالًا، وأكملَ يمشي داخلَ ممّراتِ المشفى البيضاءِ

تلك، حتّى وصلَ إلى ذلكَ البابِ الأسود، ومن خلفهِ يمشي بخطواتٍ

سريعةٍ كانَ سحاب..

- {مهلًا إلى أينَ نحنُ ذاهبان؟!!}.

وعندها إذا بالغريبِ بيدهِ اليُسرى يفتحُ ذلكَ البابَ وهبّت من داخلهِ نسماتُ ريحٍ هادئة؟!

- {أين نحنُ؟}. تساءَلَ سحاب..؟!

- {المنزل}.

في غرفةٍ ملأتها تلكَ الألعابُ العديدةُ..

والقمرُ مُهيمنًا بنورهِ على السّماء، بغيومها الكثيرة..

والنافـذةُ على مِصـراعيها مفتـوحةً، والهـواءُ منها يتسـلّلُ إلى زواياها الكبيرة..

كانت تلكَ الملاكُ جالسـةً، تحملُ بينَ يديها ابنها سـحاب، ابن العامِ الواحد..

وتقصُّ عليهِ قصّةً ما قبلَ النّوم..

والأخيرُ واضعًا إصبعهُ في فمهِ وعيناهُ المتلألئتينِ الصّغيرتينِ لا تفارقُ عينَي ملاكهِ تلك.

وفي نفسِ الوقتِ كانَ الغريبُ برفقةِ سحاب يشاهدانِ ذلكَ المشهدَ في صمتٍ خلفها..

بينَ يديها وداخلَ أحضـانها، كانَ الصّـغيرُ مُنصـتًا لها حتّى بدأت عيناهُ تخذلانهِ، وكأنّ جفونَ عينيهِ أصبحَ ثقلها كَمَا الجبال.

وأخذت تُهمهِمُ على مسامعهِ تلكَ القطعةَ الموسقيّة ذاتها حتّى غلبهُ النّومُ وغَطّ في نومٍ عميق، وراحت تحملهُ إلى سريرهِ الصّـغيرِ ذي الحواجزِ الكبيرةِ بهدوء، ووضعتهُ بِكُلِّ رفق..

ولم تنتهي هنا أو تغادرَ حتّى؛

بل اقتربت بالكرسي منهُ، وظلّت تشاهدُ طفلها الصّغيرَ يسرحُ في عالمِ الأحلام، دونَ مللٍ أو تعب.

وفي ظلّ كُلِّ هذا، كانَ الغريبُ وسحاب يشاهدانها رُغمَ تعبها ذاك، ولكن لم تغادر جانبَ طفلها، وأخذت تلامسُ خديّ ابنها، ونظراتها تلكَ كانت مشاعرَ لا توصفُ بالحروفِ حتّى.

- {تبدو سـعيدةً حقًا..}. بدأ سـحاب مُخاطبًا الغريبَ وعيناهُ لا تفارقُ والدتهُ وابتسامتها المُحبّةَ تلك..

- {لقد كانت، أجل}. أجابَ الغريبُ بصوتٍ هادئٍ، مُتكئًا على بابِ الغرفةِ والظّلالُ كانت تُغطّي نصفهُ..

- {لقد أخبرني رامي أنّها لم تدَع الخادماتِ يأخذنَني للنّومِ ولو مرّة!}.

أكملَ سحاب، وعيناهُ المتلألئتينِ تحبسُ الدّموعَ الهائجةَ تلكَ من أن تغمُرَ خدّيه..

وأكملَ بصوتٍ نادم:

- {لم أكن أعلم أنّها كانت تقضي لياليها معي هكذا؟!}.

- {إنّها أمّك، بالطّبعِ ستفعل}. أجابَ الغريبُ مُؤكدًا..

وأخذَ يخطو اتجاهَهُ بهدوءٍ حتّى بدأ نورُ القمرِ يكشفُ عن عينيهِ الرّماديتينِ السّاحرتين..

وعندما لازمَ جانبهُ، قال:

- {لقد أحبّتك..}. وعندها ربّتَ بيدهِ على كتفِ سحاب وأنهى..

- {وما زالت كذلكَ يا سحاب}.

لم يصدّق سحاب تلكَ الكلماتِ أبدًا، وظلّ واقفًا في مكانهِ يشاهدُ والدتهُ أمامهُ بهَيئتها المُحيّةِ تلك، ولا يدري ما الّذي يجري؟؟

ما هذا الشّعور؟!

ما الّذي يحدث!

- {هيّا بنا}. قالَ الغريبُ مُمسكًا بمقبضِ البابِ الأسودِ العتيقِ ذي النّقوشِ الغريبة..

وقبلَ أن يختفيا خلفَ ذلكَ البابِ، توقّفَ سحاب عندَ عتبةِ البابِ عينهِ، وأخذَ ينظرُ خلفهُ مُنكسرًا ومُودّعًا تلكَ الابتسامةَ التي نسيَها تمامًا.

وخلفَ ذلكَ البابِ استوى كُلٌّ من الغريبِ وسحاب أمامَ حديقةِ القصرِ الكبيرةِ حيثُ كانَ عُمرُ سحاب ثلاثةَ أعوام.

هناكَ حيثُ خُيوطُ الشّمسِ تُغازلُ ورودَ الحديقةِ ورائحةُ زهورها تفوحُ في المكان..

ونسيمُ الهواءِ الباردِ قليلًا، جعلَ من تلكَ الأعشابِ القصيرةِ تتراقصُ مُداعبةً أقدامَ سحاب الصّغير ووالدتهُ شهد..

يلعبانِ ويمرحانِ داخلَ تلكَ الجنّةِ الخضراءِ، وكلاهما تملؤهما السّعادةُ الغامرة.

وهناكَ كانَ الغريبُ ورفيقتهُ الرّوحُ التّائهةُ، من تحتِ ظِلِّ شجرةٍ ما يشاهدانِ بصمت.

- {هناكَ شيءٌ غريب؟

هذهِ الذّكرى ليسَت كَمَا أذكرها؟!!}. بدا سحاب مُشوّشَ الذّهنِ يحاولُ تمييزَ هذهِ الذّكرى، ولكن دونَ جدوى..!

- {لماذا تُريني كُلَّ هذا لستُ أفهم؟؟!}. خرجَ سحاب من صمتهِ وأخيرًا!

- {شاهد وحسب، سوفَ نصلُ قريبًا..}. أجابَ الغريبُ مُستلقيًا على تلكَ الجنّةِ الخضراءِ مُغمضًا عينيه،

يستمع بِصَمْتٍ إلى تغريدِ العصافيرِ وخشخشةِ السّناجبِ فوقَ الشّجرة..

أمّا سحاب فظلّ واقفًا يشاهدُ بصمتٍ يحاولُ

استرجاعَ تلكَ الذّكرى أمامهُ، ولكن دونَ فائدة..!!

وبعدَ لحظاتٍ غادرَ الاثنانُ عبرَ البابِ الأسودِ إلى ذكرى أخرى.

بابٌ كانَ ما خلفهُ يحكي قصّةً غريبة؟!

في البدايةِ رُبّما لا تجدونَ غرابةً في الأمرِ، ولكن..

كَما قالَ الغريبُ سابقًا..

— شاهد وحسب سوفَ نصلُ قريبًا —

داخلَ أحدِ المطاعمِ المشهورةِ، يوجد كُلٌّ من سحاب ذي الخامسةِ من عمرِهِ ووالدته، وكذلكَ أصدقاؤهُ من روضةِ الأطفالِ مُجتمعين..

يحتفلونَ بيومِ ميلادِ سحاب..

وعن يمينهم يوجد كُلٌّ من الغريبِ وروحُ سحاب، يشاهدانِ الجميعَ يحتفلونَ بذلكَ الفتى الذي سَرقَ الأضواءَ بخدّيهِ المُحمَرّتينِ خجلًا..

والجميعُ حولهُ يُصفّقونَ ويزفّونَ باسمهِ فرحًا.

وبعدَ لحظاتٍ أتى الخادمُ رامي حاملًا كعكةَ الميلادِ الكبيرة..

وبدأ الجميعُ يباركونَ لهُ بيومِ ميلاده..

وهناكَ أخذت والدتهُ تُمسِكةً بكتفيهِ من خلفهِ، وراحت تُقبّلُ خدّيهِ فرحةً به..

- *هيّا يا بنيّ تَمَنّ أمنية..*. بدأت شهد بصوتٍ حنونٍ، تهمسُ في أذنهِ، والابتسامةُ طغت ملامحَ وجهها بالكاملِ فرحًا بابنها الصّغير..

كلُّ هذا وسحاب ما زالَ واقفًا يشاهدُ بصمتٍ يحاولُ استرجاعَ تلكَ الذّكرى، ولكن دونَ فائدة..!!

- {هيّا بنا..}. أمرَ الغريبُ وهمّ مُغادرًا..

- {مهلًا!!}. اعترَضَ سحاب فجأةً يبحثُ في المكانِ وكأنّ هناكَ شيئًا مفقودًا؟!!

وأضاف..

- {هناكَ شيءٌ خاطئ أي——

- {لقد اقتربنا، لا تقلق سوفَ نصلُ قريبًا..}. قاطعَ الغريبُ، وأخذَ بيدِهِ اليسرى يفتحُ البابَ الأسودَ ذو النّقوشِ الغريبةِ عن يمينهِ مُغادرًا، وهناكَ قالَ سحاب بصوتٍ قلقٍ ونبرةٍ مَهزوزة..

وعيناهُ مُنصبّةٌ إلى ذاتهِ الصّغيرةِ في حيرةٍ يتساءل:

- {ماذا كانت أمنيتي؟؟؟!}.

- {ثِق بي، أنتَ لا تريدُ معرفةَ ذلك..}. أجابَ الغريبُ دونَ أن يلتفتَ إليهِ، بصوتٍ هادئ، وأنهى قائلًا بنبرةٍ غريبةٍ حملت معهـا ذلكَ السرّ الغريبَ ذاته؟!!

- {ليسَ الآن على أيّةِ حال..}.

وغادرا بذلكَ إلى ذكرى أخرى..

ذكرى قد تكونُ حطّمت الحاجزَ بينَ عالمِ الأحياءِ والأموات!!

الذّكرى التّاليةُ هي من أحبّ الذّكرياتِ لقلبِ سحاب.

سحاب ذو السّادسةِ من عمرِه، رفقةَ كُلٍّ من أبيهِ وأمّهِ في إحدى الحدائقِ

كانت الشّمسُ دافئةً، مُغازلةً بخيوطها الذّهبيةِ المُتسلّلةِ تلكَ الأشجارَ

الكبيرة.

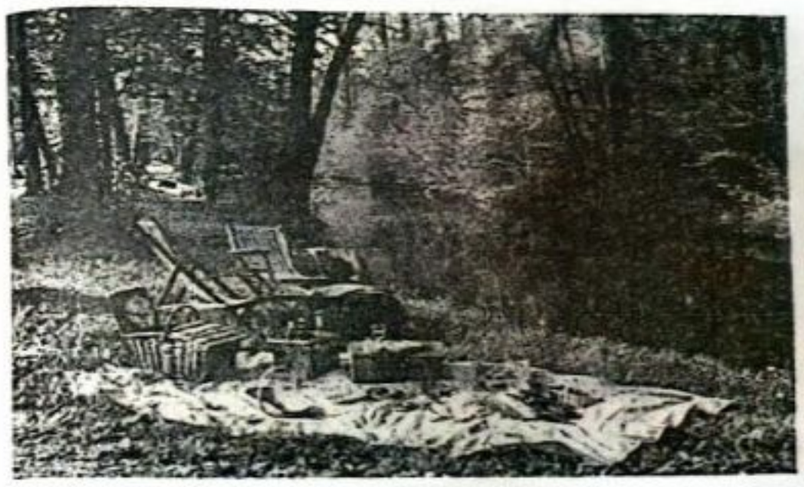

كانت والدةُ سحاب جالسةً تحتَ ظِلِّ إحدى الأشجارِ تلكَ ومن حولها

كُلُّ ما طابَ من الأكل..

سلّةٌ تحملُ داخلها مُختلفَ أنواعِ رغيفِ الخبز..

وسلّةٌ تحملُ داخلها قَنانيَ من الحليبِ والعصير..

وسلّةٌ أخرى صغيرةٌ، بداخلها مُعلباتٌ عدّة، كالمكسرات والشوكولاه

والبسكويت ومُربّى الفراولةِ والجبنِ، وغيره الكثير.

وتحتَ ظِلِّ الشّـــجرةِ كانت تلكَ الملاكُ الجميلةُ تعاينُ ابنها وزوجها

يركضانِ هنا وهناكَ، يحاولانِ الإمساكَ بأحدِ السّناجبِ الصّغيرةِ، ولكن

دونَ جدوى..

وعادا إليها خائبَي الحَظِّ تمامًا، وهي تضحكُ عليهما وتُغيظهما بلطف..

- *هل استسلمتما وبهذهِ السّرعة؟!*

نادت عليهما من بعيدٍ وعلاماتُ الإرهاقِ ترسّمت على وجههما المُحمرّ

من شِدّةِ التّعب..

- * اء لا لا فقط نريدُ أن نُعطي فرصةً للسّنجابِ كي يتنفّسَ قليلًا،

ومن ثمّ سنعودُ لمطاردتهِ هه*

أجابَ والدُ سحاب بصوتٍ عالٍ قليـلًا، وهو يتنفّـسُ بسـرعةٍ بشكلٍ مضحك..

وأضافَ مُؤكدًا يُربّتُ بيدهِ شعرَ ابنهِ الصّغيرِ بجانبهِ المُرهقِ كذلك..

- *أليسَ كذلكَ أيّها الشّقي؟*

- *لا، لقد تعبتُ حقًا!*

أجابَ سحاب مُتذمّرًا تمامًا بشكلٍ مُضحك..

لم تستطع شهد تمالكَ نفسها، وبدأت بالضّحكِ عليهما ووقفت، باسطةً يدها لابنها بابتسامةٍ تدعوهُ لأحضانها..

- *هيّا يا عينيّ ماما، تعالَ إليّ*

وعندها بدأ سحاب بالرّكضِ ناحيتها مُبتسمًا حتّى استقرّ بينَ أحضانها وقلبها الدّافئ..

- *يا قلبَ ماما هل تعبت؟*

أكملت شهد مُبتسمةً تُربّتُ وتلعبُ بشعرهِ النّاعمِ القصير..

- *اخخ أريدُ بعضَ الحليب!*

قالَ والدهُ توّاقًا لحليبٍ بارد، وراحَ يجلسُ مُستظلًا تحتَ ظِلِّ الشّجرةِ تلك..

- *وأنا أيضًا وأنا أيضًا!!*

أجابَ سحاب من شِدّةِ العطش..

- *مهه يا لكَ من شقيّ حقًا*

أكملت شهد وراحت تُقبّلُ خدّهُ الصّغير، ووقفت عندها تُصفّقُ بيدها قائلةً بابتسامةٍ فرحة:

- *من يريدُ بعضَ البسكويتِ مع الحليبِ البارد؟!!!*

- *أنا أنا!!*

أجابَ سحاب ووالدهُ كذلكَ مُسايرًا إيّاهُ ثُمّ خطفهُ بينَ أحضانهِ في جلستهم تلكَ يداعبهُ..

وأخذت شهد تُقرّبُ لهما ما اشتَهتهُ روحهما اللطيفة.

كلُّ هذا والغريبُ كانَ يراقبُ واقفًا مُتكئًا على جذعِ شجرةٍ بالقربِ منهم، وعن يمينهِ سحاب الذي لم تغادرِ الابتسامةُ شفتيهِ أبدًا، وغدرت بهِ دمعةُ الفرحِ تلكَ في غفلةٍ منه..

- {لقد كانَ هذا أجملَ يومٍ في حياتي حقًا..}. بدأ سحاب مُخاطبًا الغريبَ الذي لم يُلقِ لهُ بالًا، كَما بدى لسحاب، ولكن لم يُعطهِ كذلكَ هو أيّ اهتمامٍ، وأكملَ قائلًا:

- {انظر الآن ستأتي قِطّةٌ صغيرة!}. قالَ مُشيرًا إلى ذاتِهِ الصّغيرةِ ووالديهِ تحتَ ظِلِّ الشّجرة..

وإذا بتلكَ القِطّةِ الصّغيرةِ تقتربُ منهم، وبدأت بالمواءِ لهم تطلبُ بعضَ الطّعام..

حينها أخذَ والدُ سحاب يُقدّمُ لها بعضًا مِمّا اشتهتهُ روحها كذلكَ في إناءٍ صغير..

- * انظر إليها كم تبدو جائعة!*

قالَ سحاب الصّغيرُ مُتأمّلًا إيّاها بِحُبٍ وابتسامة..

- * هل تريدُ أن نحتفظَ بها؟*

أجابَ والدهُ وعيناهُ العسليتانِ تعكسانِ فرحةَ صغيرهِ تلك، التي اتّجهت أنظارهُ مُباشرةً إلى والدتهِ يرجوها!!

- * ماما ماما!!!! هل يمكننا الاحتفاظُ بها؟ أرجوكِ!!*

أرادت شهد أن ترفضَ، ولكن غمزةُ زوجها لها من خلفِ ابنها جعلتها تُفكّرُ في كَمْ أنّها ستجعلهُ سعيدًا..

- * حسنًا، ولكن بشرط!*

أجابت مُبتسمةً بعينينِ مُحذّرتين!

- * يجب أن—

وقبلَ أن تُكملَ انقضّ سحاب عليها فرحًا يحتضنها بقوّةٍ، وبدأ يُقبّلها في كُلِّ مكان حتّى وقعت علي ظهرها وبدأت بالضّحكِ بشدّةٍ تحاولُ

إبعادهُ، ولكنّهُ كانَ مُتمسّكًا بها بقوّةٍ، ولم يستطع والدهُ تمالكَ نفسهِ، وبدا بالضّحكِ معها كذلكَ في مَشهدٍ يُحسدُ عليهِ حقًا.

- {هل تعلمُ ما المضحك؟}. بدأ سحاب مُخاطبًا الغريبَ وهما يشاهدانِ ذلكَ الصّغيرَ يجري في المكانِ مُلاعبًا قِطّتهُ الجديدة..

- {لقد اختفت قِطّتي لولوا ذلكَ اليوم، ولم نستطع إيجادها وكأنّها اختفت من الوجودِ تمامًا}.

قالَ سحاب وعيناهُ تلمعانِ بشكلٍ مُختلفٍ عن السابق!

لقد كانَ حقًا سعيدًا لأنّهُ استطاعَ مُشاهدةَ هذا المشهدِ مَرّةً أخيرة.

- {لا شيءَ يختفي من الوجودِ هكذا..}. عارضَ الغريبُ وبخطواتٍ قليلةٍ اتجهَ ناحيتهُ، وربّتَ على كتفهِ اليُسرى قائلًا..

- {لا شيءَ يختفي من الوجودِ هكذا أبدًا..

كُلُّ شيءٍ لهُ سبب..

كُلُّ شيءٍ لهُ بدايةٌ، وكُلُّ شيءٍ لهُ نهاية..}. وقبلَ أن يُغادرهُ ويتّجه نحوَ ذلكَ البابِ الأسودِ خلفهما أخذَ ينظرُ إليهِ بتلكَ العينينِ الرّماديتينِ الحادتينِ، وأنهى بصوتٍ واثقٍ ونبرةٍ حادّة!!

- {حتّى أنا}.

وغادرَ بتلكَ الكلماتِ الغريبُ داخلَ ذلكَ البابِ الأسودِ، ومن خلفهِ يتبعهُ سحاب الذي وقبلَ أن يدخلَ من البابِ توقّفَ للحظةٍ، وأخذَ ينظرُ إلى ذلكَ المشهدِ حيثُ والدهُ ووالدتهُ سعيدينِ وكم كانَ كُلُّ شيءٍ بخيرٍ حينها..

وابتسم ابتسامةَ وداعٍ، وأزاحَ عيناهُ عنهما وأخيرًا ودخلَ من البابِ نحوَ ذكرى جديدة...

- {واااه ما هذا المكان؟!!!}.

مهلًا مهلًا!!!

كيفَ يُعقلُ هذا حتّى؟!!

وقبلَ أن يُقفلَ البابُ خلفهُ، التفتَ سحاب على ذلكَ الصوّتِ المألوفِ له!!

وهناكَ كانت الصدمةُ الكبرى...

- {كيفَ يُعقلُ هذا؟!}. بدأ سحاب وعيناهُ لا ترفّ لهما جفن!!

ظَلَّ واقفًا في مكانهِ جامدًا مُتجمّدًا، ناكرًا مُستنكرًا لما تراهُ عيناهُ الآن؟!!!

- {انظر إلى كُلِّ تلكَ النّجومِ، إنّها رائعةٌ حقًا!}.

أكملَ سحاب الصّغيرُ في ذهولٍ، مُمسكًا قطتهُ لولوا بيدهِ اليُسرى وبيدهِ اليُمنى مُلامسًا هيكلَ البابِ الأسود!!

- {ماذا نجوم؟!}. التفتَت روحُ سحاب الكبيرةِ في عجلٍ وخوف؟!!

- {كك— كيف؟؟!}. أخذَ يتساءلُ في حيرةٍ لا يدري ما الّذي يجري؟!!

فكُلُّ هذهِ المُدّةِ كانَ البابُ يؤدّي مُباشرةً إلى الذّكرى التّالية، وليسَ إلى مهبطِ النّجوم؟؟

وكيفَ لذاتهِ الصّغيرةِ أن تراهُ وتتكلّم معه!!

وراحَ بعينيهِ التّائهتينِ يبحثُ عن ذلكَ الغريبِ داخلَ مهبطِ النّجومِ، ولكن!!

لا وجودَ له؟!

وبينما هو تائهٌ لا يدري أينَ اختفى الغريبُ، وكيفَ لِكُلِّ هذا أن يحدث؟؟

أخذَ سحاب الصّغيرُ مُتسلّلًا، يخطو أولى خطواتهِ داخلَ مهبطِ النّجومِ فجأة!!

- {هي أنت!}.

نادت روحُ سحاب الكبيرةِ بنبرةِ هشّةٍ لا تدري ما تفعل؟!

- {عُد إلى هنا؟!!}.

ولكن الصغيرُ كان قد خُطفَ بصرهُ وقلبهُ من جمالِ ذلكَ المكان..

- {واااه وكأنّني في الفضاء—

- {قلت عُد، عليكَ الخروجُ من هنا أيّها الفتى!!}.

نادت الرّوحُ التّائهةُ ترتجي ذاتها الصّغيرةَ، وهمّت غاضبةً خائفةً تُريدُ الإمساكَ بهِ، ولكن!!!

وفي اللحظة التي تلامسا بها!!

تمامًا في اللحظةِ التي حصلَ التّفاعلُ بينهما، إذا بتلكَ الطّاقةِ المُخيفةِ تعبرُ كليهما، وكأنّهما أصيبا بصدمةٍ كهربائيةٍ مميتة؟!!!

طاقةٌ فقدَ على إثرها سحاب الصّغيرُ وعيهُ، بينما قُذِفَت روحُ سحاب الكبيرةِ بعيدًا و...

ظلامٌ دامس.

دكرى واحدة..

أتمنّى لو أتذكّرُ دِفءَ حُضنكِ، ولمسةَ يَدَكِ الدّافِئَةَ حقًا..

دِكرى واحدة تكفي.

الفَصلُ الخامِس..

"ذلك اليوم"

- {هي أنتَ؟}. نادى الغريبُ حائرًا؟!

- {هل أنتَ بخير؟}.

- {ما الّذي حدث؟}. أجابَ سحاب مُحاولًا النّهوض—

لا!

بل كانَ واقفًا بالفعل؟

وأخذَ ينظرُ حولهُ في حيرة؟!

فإذا بهِ داخلَ ذكرى أخرى!

- {ما الّذي يجري؟}.

- {ماذا تعني؟}.

- {لقد استطاع رؤيتي؟؟!}. أجابَ سحاب مُشوّشَ الذّهن تائهًا، وهناكَ استوَت عيناهُ على ذلكَ الغريبِ أمامهُ ووجههُ عديمُ الملامحِ يتساءلُ ما الّذي يقصده؟

- {يبدو أنكَ شردتَ بالذّهن}. قالَ الغريب..

- {ربّما..!}. أجابَ سحاب حائرًا لا يدري إذا ما حصلَ كانَ بالفعلِ مُجرّدَ خيالٍ في رأسه؟!

وأضاف..

- {أين نحنُ الآن؟}.

- {لقد وصلنا..}. أجابَ الغريبُ، وأضافَ بنبرةٍ حادةٍ جادّةٍ على غيرِ العادةِ بشكلٍ غريب؟

- {إلى ذكرى ذلكَ اليوم..

ذكرى ما قبلَ سِتّ سنوات..

اليومُ الذي تغيّرَ فيهِ كُلُّ شيء}.

- {ماذا تقصد، وصلنا إلى أين؟!}.

قالَ سحاب، وراحَ بعينيهِ ينظرُ إلى المكانِ من حوله، وفي اللحظةِ التي مَيّزَ ماهيةَ هذهِ الذّكرى، قالَ يرتجي ذلكَ الغريبَ الذي كانَ واقفًا مُتكئًا كعادتهِ!

- {أرجوكَ ليسَ هذهِ الذّكرى!

أيّ شيءٍ سواها أرجوك؟!!}. بدأ سحاب بعينيهِ الزّاجيتينِ، ولكنّ الغريبَ صاحبُ العينينِ الرّماديتينِ كانَ يُحدّقُ بعينَي تلكَ الرّوحَ النّائهةَ أمامهُ دونَ أن ينطقَ بشيء!!.

ذكرى ستربطُ كُلَّ شيء..

ذكرى الماضي والحاضرِ والمستقبل..

ذكرى قد تكونُ من شأنها أن دَمّرت ذكرياتَ الماضي وأنشأت حاضرًا مُختلفًا تمامًا!!

إذا كانت الذّكرى السّابقةُ قد دَمّرت الحاجزَ بينَ عالمِ الأحياءِ والأموات!

فهذهِ الذّكرى هي بدايةُ المأساةِ الحقيقيّة..

أم يجبُ عليّ القول..

— ذكرى الحاضر المزيّف —

- {أرجوك أيّ شيءٍ سوى هذهِ الذّكرى أرجوك!!}.

أكملَ سحاب راجيًا، ولكن لا فائدة..

وهناكَ انفجرَ غاضبًا مُستنفرًا عاجزًا!!

- {هذا الجحيمُ أليسَ كذلك؟؟}.

وأضافَ يبتسمُ كالمجنون، يدورُ في مكانهِ تائهًا تمامًا..!

- {بالطّبعِ هو كذلك..

أتريدُ أن تُعذّبني؟

إذًا لقد نجحْت تمامًا لكَ أيّها الموت!!}.

ولكن الغريب لم يرفّ لهُ جفن، وظَلّ مُحدّقًا بعينيّ الموتِ تلكَ، داخلَ عينيّ تلكَ الرّوحِ النّائهةِ، وهي ترتجي خلاصها..

- {سحاب..}. بدأ الغريبُ بصوتٍ هادئٍ وحادّ..

وأضاف..

- {هل تعلمُ حقًا ما الذي حدثَ تلكَ الليلة؟}.

قالَ مُشيرًا إلى هذهِ الذّكرى..

- {ما الّذي تعنيه؟}. أجابَ سحاب بنبرةٍ مهزوزةٍ قليلًا..

- {انظر..}. وهناكَ اتّجهَت عينا الغريبِ خلفه.

في غرفةٍ حيثُ أصـدقاءُ سـحاب جميعهم ووالداه يحتفلونَ بيومِ ميلادِهِ الحادي عشر..

وبعدما انتهوا من إطفاءِ الشّموعِ، وبدأ سحاب بفتحِ الهدايا الواحدةَ تلوَ الأخرى، في سعادةٍ غامرةٍ مُتلهفًا لهديةِ أبيه، الذي كانَ دائمًا ما يُفاجئهُ بما تمنّى قلبه.

كانت هديةُ والدِهِ لهُ هي مِضربُ لُعبةِ البيسبول مَنقوشٌ عليها اسمهما معًا.

ابتسمَ سحاب الصّغيرُ في عينيّ والدِهِ الذي كانَ مُبتسمًا بحزنٍ غريب!

ابتسامةٌ جعلت من سحاب الصّغير يشعرُ بأنّ هناكَ خطبًا ما بوالده، ولكن وقبلَ أن يذهبَ إليهِ، هَمّ أصـدقاؤهُ مُقبلينَ إليهِ مُنبهرينَ بجمالِ ذلكَ المِضربِ الخشبيّ.

وفي وسطِ كُلّ هذا ما زالَ سحاب الصّغير يبحثُ بينَ الحشودِ داخلَ تلكَ الغُرفةِ الكبيرةِ عن أبيهِ، وهناكَ لمحَ والدتهُ مُمسكةً بيدِ والدِهِ، وأخذت بهِ إلى ساحةِ حديقةِ القصرِ مُسرعةً بشكلٍ غريب؟!

تسلّلَ عندها سحاب مُمسِكًا بمضربِهِ الجديد، وذهبَ خلفهما بهدوءٍ يتفقّدُ ما الذي يحصل، حتّى توقّفَ عِندَ سماعِهِ صَدَى صوتهما يَصرُخانِ على بعضهما،

وراحَ مُختبئًا خلفَ جذعِ شجرةٍ ما، يتنصّتُ عليهما بصمت!

ومن خلفِ سحاب الصّغيرِ كانَ الغريبُ ورفيقتهُ الرّوحُ التّائهةُ، روحُ سحاب الكبيرةِ تتنصّتُ كَمَا هي ذاتهُ الصّغيرةُ بحزن..

فهو يعلمُ ما الّذي على وشكِ الحدوث.

- * هل تُريدُ حقًا الذّهاب؟؟؟*

صرخت شهد بصوتها الباكي ونبرتها المَهزوزةِ تلك!

- * هل تُريدُ الذّهابَ الآن حقًا، في يومِ ميلاده؟؟!

أليسَ لديكَ أيّ ذَرّةِ مشاعرٍ أيّها اللعين؟!*

أكملت بنَبرتها المهزوزةِ، وتصارعُ تلكَ الدّموعَ أن تنهمر..

- * شهد أنا آسف، ولكن لم أعد أستطيعُ القيامَ بهذا بعدَ الآن!!*

بدأ المتّهمُ بالحديثِ وأخيرًا..

- * لقد ظننتُ أنّني أستطيع، ولكن كِلانا يعرفُ أن—

وهنا قاطعتهُ شهد صافعةً إيّاهُ وبقوّة!!

- * لا تجرؤ حتّى على قولها أيّها اللعين!!!*

قالت شهد وعيناها الزّرقاوانِ تحملان غضبًا لم تشهدهُ هي كذلكَ أبدًا!

صفعةٌ كانت تحذيرًا له...

وهناكَ قالَ مُمسكًا بِخدّهِ المُحمرِّ بنبرةٍ تحذيرية..

- * لا يُمكنكِ أن تستمرّي بهذهِ الكذبةِ يا شهد..

عليكِ إخبارهُ بالحقيقةِ قبلَ فواتِ الأوان!*

وأضاف..

- * أمّا أنا فلا أريدُ أن أستمرّ بهذهِ الكذبةِ بعدَ الآن..*

وهناكَ وقبلَ أن يرمي بتلكَ القُنبلةِ على سحاب الصّغيرِ توقّفَ قليلًا

يحسبُ وزنَ كلامهِ، وأكملَ بصوتٍ نادمٍ وعينينِ حزينتين..

- * أنا أحبّ ذلكَ الفتى حقًا، ولن يُغيّرَ من ذلكَ شيء ولكنّي لا أستطيعُ

أن أستمرّ في إخفاءِ الأمرِ عنهُ هكذا!!

وهذهِ الحياةُ لم تَعُدْ كافيةً بالنسبةِ لي!*

- * ما الّذي تقصدهُ بهذهِ الكذبةِ يا أبي؟*

خرجَ من بينِ الظّلالِ ذلكَ السّحابُ الصّغيرُ مُتسائلًا، بتلكَ الدّمعةِ على

خدّه..

وأتى بنبرةِ صوتهِ المهزوزة..

- * هل سترحل عنّا؟؟*

وهناكَ أخذَ الاثنانُ ينظرانِ صغيرهما في ذهول!!

- * سحاب، لم أنتَ هنا؟!!*

بدأت شهد مكسورةَ القلبِ تتساءلُ بعينيها التّائهتينِ لا تدري ما تفعل؟؟

- * سحاب بنيّ..*

بدأ والدهُ، وأخذَ بخطواتٍ صغيرةٍ اتجاههُ، والقمرُ من فوقهم مُهيمنًا

بنورهِ على تلكَ الأرضِ الخضراءِ الجميلةِ بزهورها وورودها البهيّة..

وراحَ يجثو على ركبتيهِ مُمسكًا بكتفيّ ابنهِ الصّغيرِ وزوجتهُ شهد أمامهُ

ترنجي بتلكَ النّظراتِ الباكيةِ ألّا يفعلها!

- * بُنيّ أنتَ تعلمُ أنّني أحبكَ أليسَ كذلك؟*

وهنا بدأ صوتهُ ينكسرُ على تلكَ الكلماتِ عندما قالَ مُحاربًا تلكَ الدّموعَ أن تهربَ، ولكن دونَ فائدة..

- * ستبقى دائمًا ابني مهما حصل، ولكن عليّ الرّحيل*

وقبلَ أن يُكملَ كلامهُ توقّفَ قليلًا عندما سمعَ ابنهُ يرتجيه:

- * ولكنّهُ يومُ ميلادي أينَ ستذهب؟*

قالَ سحاب بصوتهِ الصّغيرِ تائهًا يبحثُ عن إجابة؟!!

نظرَ الأبُ لعينيّ ابنهِ مُبتسمًا بألم، وقالَ يتحاملُ ذلكَ الوجعَ في قلبه:

- * أعلمُ أنّهُ يومُ ميلادكَ يا بنيّ، لذلكَ عليّ فعلها..

رُبّما لا تتفهّمُ لِما فعلتها الآن، ولكن—*

وهناكَ أخذَ ينظرُ إلى شهد التي بدأت بالبكاءِ الصّامتِ ذاكَ ترجوهُ أن لا يُخبره!

وراحت بشفتيها الصّامتةِ ترتجيهِ ألّا يُخبرَ ابنها الصّغير:

- * أرجوك لا تُخبره!!*

أخذَ والدهُ نفسًا عميقًا عندها، وما زالَ مُمسكًا بكتفيّ ابنهِ الصّغيرِ وأكمل..

- * رُبّما لا تتفهّمُ لما فعلتها الآن، ولكن أتمنّى أن تتفهّمَ الأمرَ عندما تعلمُ الحقيقةَ كاملة*

- * ما الّذي تقصدهُ لستُ أفهم، حقيقةُ ماذا؟!*

قالَ سحاب وصوتهُ يبكي خَوفًا يستاءلُ ما الّذي يحدث؟؟

- * لا يُمكنني إخبارك يا بُنيّ*

أجابَ والدهُ مُبتسمًا وأضافَ مُودعًا..

- * فهيَ ليست حقيقتي لأخبركَ بها يا عزيزي*

وغادرَ بتلكَ الكلماتِ والدُه مُمسكًا بيديهِ عينيهُ من أن تفيضَ الدّموع..

وعلى صَدَى تلكَ الكلماتِ، وقعت شهد على رُكبتيها مُمسِكةً بقلبها المُتألّم، وبدأت تبكي وعيناها إلى السماءِ وقمرها المُختبئِ بينَ تلكَ السّحبِ الرّماديةِ الماطرة..

- * ماما ما الّذي يقصدهُ بابا؟؟*

قالَ سحاب يبكي لا يدري ما الّذي يحدث فجأة!!!

وأضافَ يصرخُ وقلبهُ يرتجفُ من شِدّةِ البكاء..!!

- * ماما إلى أين سيذهب بابا؟؟؟*

ولكن دون إجابة.

وأسرعَ سحاب الصّغيرُ يجري خلفَ والدهِ الذي رَكِبَ سيّارتهُ مُغادرًا بوّاباتِ القصر، وهو يرى ابنهُ الصّغيرَ يبكي بِحرقةٍ يحاولُ اللحاقَ بهِ من مِرآةِ السّائقِ الأمَاميّةِ، وهوَ لا يرجو سِوى الخَلَاصَ من فعلتهِ بِحقّ ذلكَ الصّغيرِ التّائهِ، بينَ ماهية الحقيقةِ والكذبةِ تلك!.

وبدأت السّماءُ تمطرُ بِغزارةٍ، بينما سحاب يجري خلفَ والدهِ باكيًا يرتجيهِ أن يتوقّفَ!!

حتّى انقطعت أنفاسُهُ، وتصلّبت عضلاتهُ وتعثّرَ على طينِ الأرضِ، وتلطّخت ثيابُ فتى الميلادِ بالوسَخ.

- {هل يُمكننا الرّحيلُ الآن؟}.

بدأ سحاب الكبير مَكسُورَ القلبِ يرتجي الخلاص..

- {أرجوك لقد انتهى الأمر، لنذهب هيّا..}.

- {سأعيدُ سؤالي مَرةً أخرى يا سحاب..}.

أجابَ الغريبُ بِصوتٍ حادٍّ ونظرةٍ مُخيفة!

واخذَ بِخطواتٍ صَغيرةٍ حولَ والدتهِ بينما ما زالت على رُكبتيها تبكي بصمتٍ، والمطرُ يَطِلُ فوقها، حتّى اختلطت دُموعُها الصّامتةُ معَ حَبّاتِ المطر..

- {هل حقًا تعلمُ ما الّذي حدثَ هذهِ الليلة؟}.

أعادَ الغريبُ سؤالهُ لتلكَ الرّوحِ التّائهة!

- {ما الّذي تعنيه، لستُ أفهم؟!!}.

أجابَ سحاب يرتجي الإجابةَ لذلكَ السؤال؟!!

- {أن تعلم، ولكنّكَ لا تُريدُ التذكّر..}.

قالَ الغريبُ بعينيهِ الرّماديتينِ المُخيفتينِ تلك!

- {قلتُ لا أعرف ما الذي تقصده؟!!}.

صرخَ سحاب يرتجفُ في مكانهِ، وأخذَ مُمسكًا برأسهِ يجولُ في المكانِ يحاولُ التذكّر، ولكن دونَ فائدة!!

وعندها صرخَ الغريبُ بصوتهِ المُهيبِ ذاكَ تزامنًا مع صوتِ الرّعدِ في السّماء!!!

- {سحاب انظر إليّ!!!!

توقّف عن الإنكارِ، فأنتَ تعلمُ ما الذي حدثَ بعدها!!}.

- {أقسمُ أنّني لا أعرف!!}.

صرخَ سحابَ يرتجفُ مُرتبكًا، وبدأ بالصّراخِ في مكانهِ يبكي!!

وأخذَ يضربُ رأسهُ بِقوّةٍ مُخيفةٍ حتّى...

حتّى استوَت عيناهُ السّوداوانِ على ذلكَ المَشْهَد.

ذاتهُ الصّغيرةُ مُبلّلَةً بالكامل..

الطّينُ كانَ قد غطّى نِصْفَ وَجْهِهِ الأيسرِ إثرَ وقوعه!

وشعرهُ الطّويلُ قليلًا كانَ على وَجْهِهِ ومُبلّلًا بالكامل..

مُمسِكًا بِمضرَبِهِ الجديدِ ذاك..

وعيناهُ مُنصبّةٌ إلى والدتهِ هناك..

السّماءُ تضربُ صارخةً ببَرقها..

الرّعدُ يدوي بصوتهِ، والبرقُ يضربُ بقوّته..

وأغصانُ الأشجارِ تتراقصُ وكأنّها تصرخُ خوفًا ورعبًا!!

- {ما الّذي يحدث؟}.

قالَ سحاب الكبير، وهو يرى ذاتهُ الصّغيرةَ وعيناها مُنصَبّةٌ إلى والدتهِ بغضبٍ شديد!!

واخذَ الغريبُ بخطواتٍ صغيرةٍ يتجوّلُ في المكانِ واضعًا يديهِ خلفَ ظهرهِ يشاهدُ بِتَمعّنٍ الآتي...

- {ما الّذي يجري؟؟؟

لم يكن الأمرُ هكذا لق—

ما الّذي أنا على وشكِ فعله؟؟؟!}.

قالَ سحاب، وبدأ كيانهُ يرتجفُ بأكملهِ عندما رأى التالي..

رفعت شهد رأسها ودموعها كانت قد امتزجت معَ حَبّاتِ المطر..

وعلى رُكبتيها ما زالت..

وعيناها تنظرُ طفلها الصّغيرَ هناكَ أمامها..

- * سحاب بُنيّ؟! *

نادت بنبرةٍ قلقة، وهي ترى تلكَ الأعينَ الحاقدةَ التي لم تعهدها تنظرُ إليها بهذهِ الطّريقة!

- * بنيّ ما بك؟ *

ولكنّ الأخيرَ ظَلّ صَامتًا مُمسِكًا بذلكَ المِضْـرَبِ ينظرُ إليها وقد تَملّكَـهُ الغضبُ العارمُ تمامًا!!

عينـــانِ حاقدتانِ، وقلبٌ غاضـب، يتنفسُ بســـــرعةٍ، وروحٌ تشتهي الانتقام؟!

- {توقّف توقّف توقّف!!!}.

بدأ سحاب الكبير، يصرخُ راجيًا ذلكَ الغريب!!

- {أرجوكَ دعهُ يتوقّف!!!!!}.

ولكن الغريبُ ظَلَّ يدورُ في المكانِ حولهم جميعًا يشاهدُ بصمتٍ، والمطرُ يهطلُ بغزارةٍ على تلكَ الأرضَ الخضراءَ من حولهم.

- ● سحاب بنيّ ما—

وقبلَ أن تُنهي، إذا بالأخيرِ يجري ناحيتها يصرخُ غضبًا، وأخذَ مُلوحًا بذلكَ المِضْرَبِ على رأسها وبدأ يضربها! ويضربها!! ويضربها بشدة!!!!! حتّى سالَ الدّمُ منهـا، وراحَ يصـرخُ مع صرخاتِ السّماءِ تلك، وأكملَ ينهالُ عليها بغضبٍ صارخًا مُزمجرًا!!!!

- ● أنتِ السبب! أنتِ السبب!! أنتِ السبب!!! أيّتها الكاذبة، أنتِ السبب!!!! كُلّهُ بسببك!●

- {أرجوكَ دعهُ يتوقّف؟!!!!}. صرخَ سـحاب الكبير يبكي بِشِـدّةٍ، وأكملَ ينادي باكيًا راجيًا ذلكَ الغريب أن يفعل شيئًا ما!!!

- {هل تتذكّرُ الآن؟!!!}.

صرخَ الغريبُ وهو يمشـي في المكـانِ حولَ ثلاثتهم، والسّماءُ تضـربُ ببرقها ورعدها!!

- {هل تتذكّرُ ما الذي فعلتَهُ تلكَ الليلةَ يا سحاب؟!!!}.

أكملَ الغريبُ يصرخُ ناحيتهُ، ولكن سحاب ما زالَ مُمسِكًا برأسهِ يحاولُ التذكّر، ولكن دونَ فائدة!!

- {انظر ما الّذي فعلتهُ يداكَ انظر!!!}.

وبينما كانَ الغريبُ يتكلم، ما زالَ سحاب الصّغيرُ مُنهمكًا في ضربِ والدتهِ، وعيناهُ كُلّها غضبٌ وكرهٌ وحقد!!!

- {كُنتَ تعلمُ الحقيقةَ طوالَ حياتكَ، ولكنّكَ اخترتَ تجاهلها، وأن تعيشَ كذبةً على أن تعيشَ الحقيقةَ المُرّةَ أليسَ كذلك؟؟!

كانا يظنّانِ أنّك لا تعلمُ الحقيقةَ، ولكنّكَ كُنتَ تعلمها منذُ البداية، ولكنّكَ تجاهلت الأمرَ وفضّلتَ العيشَ داخلَ كذبةٍ أليسَ كذلك؟؟؟}.

- {أقسمُ أنّني لا أعلمُ ما الّذي تتحدّثُ عنهُ، أرجوكَ دعهُ يتوقّف وحسب!!!}.

صرخَ سحاب يبكي دمًا وهو يشاهدُ والدتهُ تتلقّى ذلكَ الضّربَ المُبرح!!

وهناكَ بدَآ يرجانِ بعضهما بالصّراخ!

- {لماذا؟ أتشعرُ بالذّنبِ الآن!!

أولستَ من فعلَ هذا؟!}.

- {أقسمُ أنّني لا أتذكّرُ شيئًا، كُلُّ ما أتذكّرهُ هو أنّها كذبت عليّ ولم تخبرني بالحقيقة!!}.

- {أهذا كرهتها طوالَ هذهِ المدّة؟}.

- {أجل!}.

- {أكانت الكذبةُ تلكَ تستحقّ أن تكرهها لهذهِ الدّرجة؟}.

- {أجل!!}.

- {إذًا أخبرني ماذا كانت تلكَ الكذبة؟}.

- {إنّها..— أنا.. —

وفي تلكَ اللحظةِ ضربَ الغريبُ يديهِ معًا وتوقّفت بعدها حبّاتُ المطرِ في مكانها تطفو...

كُلُّ شيءٍ تجمّد في مكانه...

وكأنّ الوقتَ قد توقّف تمامًا...

لا، فالوقت لم يكن جُزءًا من هذا العالم.

- {ما الّذي يحصل؟}. بدأت روحُ سحاب المُنهزمة..

- {اهخخ}. تَنَهّدَ الغريبُ، وراحَ يجلسُ مُتكئًا على جذعِ شجرةٍ ما..

وقالَ مُبتسمًا بصوتٍ دافٍ ومُعاتب، وعيناهُ مُنصبّةٌ إلى تلكَ الرّوحِ التّائهةِ أمامه..

- {أنتَ لا تعرفُ حتّى لماذا تكرهها..}.

- {بلى ولكنّي أنا— .. ؟؟}.

بدأ سحاب يتلعثمُ لا يدري ماذا ولماذا وكيفَ حتّى؟

- {لقد نسيت! لماذا لا أتذكّر؟!}.

عندها ابتسمَ الغريبُ في عينيهِ التّائهتينِ تلكَ، وقالَ بصوتٍ مُعاتبٍ دافئ..

- {الأمرُ ليسَ لأنّكَ نسيت..

بل لأن ليسَ لديكَ سببًا لتكرهها من الأساس، وتحمِلَ كُلَّ هذا الحقدِ اتجاهها..}.

- {ولكن لما.. ما الّذي حدثَ لي؟}.

- {لم يحدث شيء، أنتَ فقط لم تستطع تقبّلَ الحقيقةِ تلكَ وفضّلتَ أن تعيشَ كذبة..}.

- {ولكن ما هي الحقيقةُ التي كانَ يقصدها أبي؟!!

وما الكذبةُ التي كانَ يعنيها؟!}.

- {ما زلتَ لا تُريدُ التذكّرَ ها؟!}.

ابتسمَ الغريبُ، وأضافَ ينظرُ للسّماءِ الجامدةِ تلكَ، والمطرُ في الهواءِ يطفو..

- {حسنًا سأساعدك..

في جميعِ الذّكرياتِ حتّى الآن، كُنتَ تواجهُ صعوبةً في تذكّرِ بعضِ الأحداث!

لقطاتٌ من ذكرياتك...

ماذا كانت أمنيتك...؟

وكذلكَ بعضُ الأشياءِ المفقودةِ في ذكرياتك الأولى..

أم عليّ القول..}. وهنا نظرَ الغريبُ إليهِ بنظرةٍ دافئة..

- {أم عليّ القولُ شخصٌ مفقودٌ من بعضِ ذكرياتك؟}.

وهنا استوَت الفكرةُ لدى سحاب وأخيرًا..!

وكانَ تلكَ القطعةَ التي كانَ يبحثُ عنها طيلةَ هذهِ الرّحلةِ قد وجدها

وأخيرًا!

وقالَ بوجهٍ عديمِ الملامحِ، حملَ معهُ دمعةً قد جفّت تمامًا..

- {أبي...!}.

وراحَ بعدها بخطواتٍ صغيرةٍ يتمايلُ فيها يمنةً ويسرة..

حتّى وصلَ إلى ذلكَ الغريبِ، وأخذَ يجلسُ بجانبهِ مُتكئًا على جذعِ تلكَ الشّجرة، وأمامها ذلكَ المنظرُ الجامدُ المُخيف!

سحاب الصّغير مُلوحًا بغضبٍ مِضربهُ على والدتهِ ودمها كانَ قد اختلطَ بطينِ الأرضِ ذاكَ، وتطلبُ منهُ صارخةً أن يتوقّف..

وكأنّها لوحةُ ملاكٍ تصرخُ بصمتٍ طالبةً النّجدة.

وعندها أكملَ سحاب بجانبِ الغريبِ مُستوعبًا الأمرَ وأخيرًا..

وقالَ بصوتٍ خائبٍ ونظرةٍ تعيسة..

- {هو ليسَ والدي..}.

- {أجل هو ليسَ والدك..}.

أجابَ الغريبُ وكلاهما يشاهدانِ ذلكَ المشهدَ المؤلمَ أمامهما..

- {ولكن لماذا لا أتذكر؟!}.

- {هل تتذكّرُ ماذا كانت أمنيتكَ سابقًا؟}.

- {لا ليسَ حقًا..}.

- {كانَ عُمركَ خمس سنوات، ولم يكن لديكَ أب..

لم تحظَ بحنانِ الأبِ، وقد كُنتَ تُشاهِدُ أصدقاءكَ مع آبائهم طوالَ الوقت،

وكُنتَ تتساءلُ لم لا أملك أبًا..

لذا كانت أمنيتكَ هي أن تحظى بأبٍ مِثلَ البقية..

وهذا ما جعلَ من والدتكَ تُفكّرُ في كُلِّ شيءٍ من جديد}.

- {ماذا تقصد؟}.

- {والدتكَ تملكُ من المالِ الكثيرَ والكثير..

ولو طلبتَ أيّ أمنيةٍ كانت لتعطيها لك، ولكن تلكَ الأمنيةُ كانت هي ما

تخشاهُ أكثرَ من أيّ شيء..}.

- {لماذا؟}.

- {لأنّهُ الشيءُ الوحيدُ الذي كانت لم تستطع أن تعطيهِ لك..

لذا حاربت نفسها كي تقعَ في الحُبّ، وهي لا تُريدُ ذلكَ، فقد كُنتَ أنتَ

كُلّ شيءٍ بالنّسبةِ لها..

ولكن مهما كانت تملكُ هي من المالِ والحنانِ لن يكفي هذا ويُعوّضَ

حنانَ الأبِ المفقودِ أبدًا..

ولكن بعدَ هذهِ الحادثةِ كُنتَ قد تَعلّقتَ بهذا الرّجلِ حتّى بدأتَ بالتّصديقِ

فعلًا أنّهُ والدكَ حقًا، وبدأت تتلاعبُ بذكرياتكَ حتّى ظننتَ أنّهُ كانَ

موجودًا في جميعِ ذكرياتِ طفولتكَ المُبكّرة..

ولكن كُلّ ذكرياتكَ من يومكَ الأوّلِ حتّى بعدَ ميلادكَ الخامسِ لم يكن

هوَ جُزءً منها..

لذا كُنتَ تتساءلُ في كُلّ ذكرى أنّ هناكَ شيئًا مفقودًا؟

أمّا الذّكرياتُ التي كُنتَ تحاولُ استذكارها ولم تستطع هي بسببِ أنّ ما

حدث هُنا جعلكَ تستبدلُ جميعَ ذكرياتكَ مع والدتكَ بأبيك، كتلكَ

الذّكرى في حديقةِ القصرِ سابقًا عندما كُنت في الثّالثة..

لذا كُنتَ تواجهُ صعوبةً في تَذكُّرِ الذّكرياتِ التي كانت تحملُ والدتكَ بها

فقط!}.

- {يا الهي كيفَ سمحتُ لهذا أن يحدث؟!

كيفَ لي أن أنسى شيئًا كهذا؟}.

قالَ سحاب، وأخذَ يتنهّدُ وهو يرى ذلكَ المشهدَ أمامهُ والدّمعةُ في عينيهِ النّادمتين..

وأضاف..

- {هل هذا ما كانَ يقصدهُ أبي بالحقيقة؟}.

- {لا فكما ذكرتُ أنّهُ قبلَ هذهِ الحادثةِ كُنتَ تعلمُ أنّهُ ليسَ والدكَ، ولكن بسببها تغيّرَ كُلُّ شيء، أم عليّ القولُ أنّكَ غيّرتَ واقعكَ تمامًا}.

- {إذًا ماذا كانَ يعنيهِ بالكذبةِ وما هيَ الحقيقةُ الكاملةُ إذًا؟

فحتّى الآن أنتَ أخبرتني ما كنتُ أعلمهُ أنا سابقًا ولكن كُنتُ قد نسيته!}.

عندها ابتسمَ الغريبُ، وبطرفِ عينهِ الرّماديةِ نظرَ إليهِ، وقال..

- {هي لم تكذب عليك يا سحاب..

هي فقط أرادت حمايتك، وأيضًا أنتَ لم تسأل عن الحقيقةِ الكاملةِ البتّة!!

فقط حمّلتَ قلبكَ بالكراهيةِ ناحيتها، ونسيتَ السّببَ تمامًا، وعشتَ في داخلَ قوقعتكَ الخاصّةِ مُقتنعًا أنّها كذبت عليكَ ودمّرت حياتك تمامًا..}.

وهنا قالَ الغريبُ شيئًا دَمّرَ روحَ سحاب تمامًا!!!

- {ولكنّكَ أنتَ من دَمّرَ حياتها يا سحاب..

ومع ذلك لم تملّ من كونكَ ابنها أبدًا، وظلّت تحاولُ كسبَ حُبّكَ من جديد، بينما تخلّيتَ عنها تمامًا عندما شُخّصَتْ بسرطانِ الرّئةِ بعدَ هذهِ الحادثةِ بفترةٍ وجيزةٍ وجعلتها تواجهُ الأمرّينِ بألمِ جسدها في مرضها، وألمِ قلبها في خسارتها لك}.

- "أنا لا أدري ماذا يجبُ أن أردّ به؟!}. قالَ سحاب بصوتٍ مهزوزِ النّبرةِ ووجهٍ عديمِ الملامحِ كارهًا ذاتهُ..

عندها أخذَ الغريبُ يقفُ على رجليهِ حتّى استوى ظهرهُ، ونظرَ إلى تلكَ الرّوحِ النّائهةِ بنظرةِ عَطفٍ وابتسامةٍ دافئة..

- {لقد فاتَ الأوانُ على قولِ أيّ شيءٍ الآن..}.

وأضافَ الغريبُ بعدها قابضًا يديهِ معًا ليَظهرَ ذلكَ البابُ الأسودُ أمامها..

- {أظنّ أنّ علينا الاكتفاءَ بالأمرِ إلى هنا..

أم أنّكَ تُريدُ أن نُكمل؟}.

وراحَ يعاينُ تلكَ الرّوحَ النّائهةَ بعينيهِ الرّماديتينِ السّاحرتينِ..

قابلها نظرةُ انكسارٍ من سحاب قاتلًا، وهو يقفُ على رجليهِ مهزوزَ الكيانِ تمامًا، بنبرةٍ هامدةٍ ونظرةٍ خاليةٍ من كُلّ المشاعر:

- {لنُنهي هذا أرجوك}.

قابلَ الغريبُ هذهِ الكلماتِ بنظرةٍ موافقةٍ، وأنهى قائلًا:

- {هيّا بنا}.

وداخلَ مهبطِ النّجومِ وتلكَ السّماءُ الدّاكنةُ والمُرصّعةُ بتلكَ الجواهرِ اللّامعة..

كانَ سحاب يمشي خلفَ الغريبِ ذي المعطفِ الأسودِ لا يدري أينَ هي وجهتهُ القادمة..

يمشي تائهًا مُتخبّطًا أسيرًا..

عيناهُ التّائهتانِ تنظرانِ إلى خطواتهِ المَائلةِ المُتخبّطةِ النّادمة..

فاقدًا للأملِ، لا يرجو أيّ شيءٍ آخرَ بعدَ الآنِ سوى أن تختفي روحهُ الملعونةُ من الوجودِ تمامًا دونَ عودة.

وبعدَ لحظاتٍ توقّفَ الغريبُ للحظةٍ أمامه..

ولكن سحاب لم يَنتبِه لهُ، واصطدمَ بهِ فجأة!

وفي اللحظة التي تلامسا بها!!

تمامًا في اللحظةِ التي حصلَ التّفاعلُ بينهما، إذا بتلكَ الذّكرى الغريبةِ تطفو إلى سطحِ ذكرياتِ سحاب بشكلٍ غريب؟!!!

ذكرى لمائدةٍ صغيرةٍ مليئةٍ بِكُلِّ ما لذّ وطَاب!

مائدةٌ صغيرةٌ داخلَ ذلكَ الكوخِ الرّثِّ والقديم؟!!

- {أينَ أنا؟!}.

قالَ سحاب ذو المعطفِ الأبيضِ ينظرُ من حولهِ باستغراب؟

وهناكَ لمحت عيناهُ بابَ الكوخِ الرّثِّ وكانَ هوَ البابُ الأسودُ عينهُ الذي

كانَ هو والغريبُ يتنقّلانِ عبره!!!

بابًا أسودَ وقديمًا للغاية!!

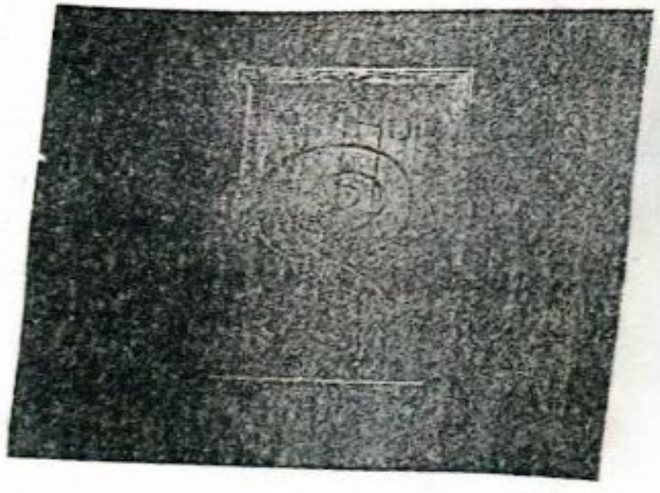

ذو نقوشٍ محفورةٍ غريبةِ الشّكلِ لم يميّزها سحاب أبدًا؟!

وكأنّ البابَ لم يكن يَمدُّ للعالمِ الحاضرِ بأيّ صلة!

وفي تلكَ اللحظةِ سمعَ صوتًا غريبًا من الخارج!

وهناكَ أخذَ سحاب بخطواتٍ مُتردّدةٍ نحوَ الباب..

وبيدهِ اليُمنى أرادَ دَفْعَ البابِ، وهناكَ حدثَ ما لا يجبُ أن يحدثَ أبدًا؟!!

سبقتهُ بفتحِ البابِ تلكَ المرأةُ الحسناءُ تحملُ طفلتها بينَ يديها وابنها الصّغيرُ عن يمينها..

وهناكَ حَطّت عيناها المَرعوبتانِ على سحاب فجأة..

وصرخت!!!

صرخت المرأةُ الغريبةُ بلغةٍ قديمةٍ لم تمرّ أبدًا على مسامعِ سحاب من قبل؟

وراحت تخفي ابنها خلفها تَحميهِ من ذلكَ الغريب!!

- {آآ..أنا—}. حاولَ سحاب انتقاءَ الكلماتِ المُناسبةَ

ولكن!!!!

إذا بالغريبِ يظهرُ من خلفِ تلكَ المرأةِ وابنها الصّغير فجأة!!!

وعيناهُ الغاضبتانِ مُنصبّةٌ إلى سحاب المُرتعبِ ذاك!!

لا يدري ما الّذي يجري؟! وأين هو الآن؟!!

وما هذا المكان؟!!!

وما هذا الرّداءُ القديمُ الذي ترتديهِ تلكَ المرأةُ

الغريبةُ وأبناؤها؟!!!!!

وبخطواتٍ سريعةٍ اتجهَ الغريبُ ناحيتهُ حتّى كادَ يصطدمُ بتلكَ المرأةِ،

ولكنّهُ عَبرَ من خلالها واستوى أمامَ سحاب، وعيناهُ تملّكهما الغضبُ

تمامًا!!!

ودفعهُ بكلتا يديهِ حتّى وقعَ سحاب وابتلعهُ ذلكَ الظّلامُ العظيمُ فجأة!

@ART_OF_BOOK

لذلكَ الغريب في المُستقبل البَعيد..

اعلم أنّي سأختاركَ دائمًا وأبدًا..

اعلم أنّي سأعارضُ وأحاربُ العالمَ كُلَّهُ من أجلك.

الفَصلُ السّادس..

"اختيار!"

- {ما كانَ ذاك؟؟!!}. بدأ سحاب مُتهجّمًا داخلَ مَهبطِ النّجومِ مُرنّحًا يلتفّتُ يمنةً ويسرةً في حيرة؟!!

أمّا الغريبُ فظلّ واقفًا في مكانهِ وعيناهُ جاحظتانِ مُرتعبتانِ مِمّا رأتاه توًا، وشعرهُ الأبيضُ كانَ قد سَقَطَ على عينيهِ تائهًا كان!

واقفٌ ينظرُ إلى مَحَطٍّ قديمهِ، جامدُ الكيانِ لا يرفُّ لهُ جفنٌ أبدًا ولا يهتزُّ لهُ طرف!!

- {هيه أنت؟ قلتُ ما كانَ ذاك؟؟}. أعادَ سحاب سؤالهُ لذلكَ الغريب..

بل إلى ذلكَ الكيانِ الغريبِ التّائه!

وبعدَ لحظةِ صمتٍ دامت طويلًا، اتّجهت عينا ذلكَ الغريبِ إلى تلكَ الرّوحِ التّائهةِ أمامهُ، تستنكرُ ما حدثَ توًا وقال..

- {أنا— لا أعلم؟!}. نطقَ الغريبُ وأخيرًا، ثُمّ أزاحَ نظرهُ عن سحاب، وأخذَ بيدهِ اليُسرى يزيحُ شعرهُ الأبيضَ للخلفِ، وهناكَ لمحت عينا

سحاب تلكَ النّظراتِ التّائهةَ المُرتعبةَ التي كانت تعتليهِ تمامًا بسببِ تلكَ الذكرى الأخيرة!!

- {ذلكَ البابُ ذو النّقوشِ الغريبة..

إنّهُ ذاتُهُ البابُ الذي رأيناهُ توًا داخلَ ذلكَ الكُوخ!!}.

قالَ سحاب مُشيرًا إلى البابِ الأسودِ عينهِ الذي كانا يتنقّلانِ عَبرهُ من ذكرى إلى أخرى!

- {أجل هو كذلك، ولكن..!

أنا حقًا لا أعلمُ ما الّذي حدثَ للتوّ؟!}.

- {إذًا لماذا كُنتَ غاضبًا ومُندفعًا حينها؟!}. أجابَ سحاب..

- {أنا لا أعلم أيضًا..

كُلُّ شيءٍ يبدو ضبابيًا فجأةً!}.

عندها أخذَ الغريبُ مُغمضًا عينيهِ للحظةٍ طويلة..

وقالَ مُتنهّدًا..

- {هذا لا يهمّ الآن..}. ثُمّ فتحَ عينيهِ صوبَ سحاب أمامهُ، وأضاف..

- {لقد وصلنا إلى النّهايةِ يا سحاب..

الآن عليكَ أن تختار}. وفي تلكَ اللحظةِ أخذَ الغريبُ رافعًا يديهِ مُشكّلًا شَكلًا غريبًا بهما!!

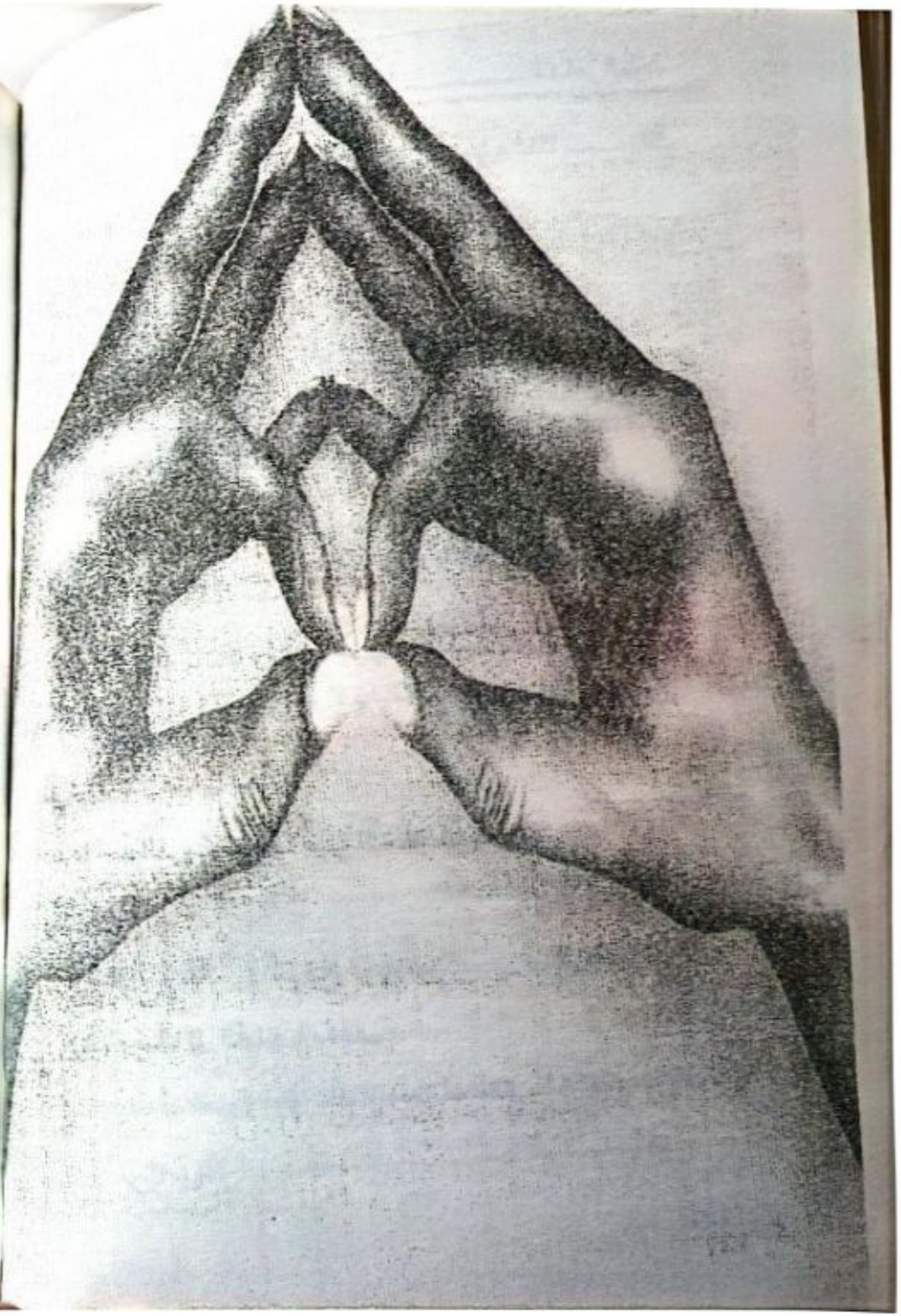

وبدأ يُحدثُ بكلماتٍ غيرِ مفهومة؟

وفي تلكَ اللحظةِ إذا بما يجدرُ أن تكونَ أرضًا تقفُ عليها قدماهما، تهتزّ فجأةً وما حولهما من النّجومِ كذلكَ بدأت تلتفُّ بسرعةٍ غريبةٍ حولهما؟!

وإذا بذاكَ الصّوتِ المُخيفِ، وكأنّهُ بركانٌ حانَ أوانهُ بِكُلِّ غضبهِ هائجًا مُستيرا!!

- {ما الّذي يحدث؟!!}. صرخَ سحاب مُحاولًا الحفاظَ على توازنهِ خائفًا!!

وهناكَ ازدادَ الصّوتُ المُخيفُ صخبًا!!

والنّجومُ ازدادت سرعةُ دورانها بشكلٍ مُخيفٍ تزامنًا مع ذلكَ الصّوتِ المُهيبّ!

وفي تلكَ اللحظةِ لم يستطع سحاب تَحمُّلَ كُلِّ هذا فأغمضَ عينيهِ، وأقبضَ على أُذنيهِ بيديهِ بقوّة!!

ولم تستطع قدماهُ تَحمُّلَ الاهتزازِ المُخيفِ ذاكَ، فوقعَ على رُكبتيهِ، يرتجي ذلكَ الغريبَ صارخًا بِكُلِّ صوته؟!!!

- {إنّ رأسي يؤلمني؟!}.

ولكنّ الغريبَ أكملَ يُتأتِئُ بتلكَ الكلماتِ الغريبةِ ويداهُ بذاكَ الشّكلِ الغريبِ ما زالت!

وهناكَ أخذَ سحاب يصرخُ بِكُلِّ صوتهِ مُنادياً يرتجي الخلاص.

وفجأة...

توقّفَ كُلُّ شيء..!

على رُكبتيها كانت تلكَ الرّوحُ التّائهةُ مُغمضةً عينيها وقابضةً يديها على أُذنيها..

وعندما أحسّت الرّوحُ بالأمانِ أخذت تفتحُ عينيها ببطءٍ مُطأطئةً رأسها، حتّى استوت على الأرضِ أمامها..

فإذا بها رَملٌ كَثيبٌ مُهيبٌ يلمعُ كالماساتِ وجواهر؟!

وراحت ترفعُ رأسها للسّماء، مُستشعرةً ذلكَ الدّفءَ وكأنّها روحٌ عادت للحياةِ من جديد؟

وأخذت تستشعرُ بيدها ذلكَ الرّملَ الكثيبَ قابضةً عليهِ تستشعرُ نعومةَ ودفئه..

- {أشعرُ وكأنّني على قيدِ الحياة..}. نطقَ سحاب وأخذَ بعدها يقفُ على قدميهِ العاريتينِ والرّملُ يغازلُ أنامله..

وعندما استقامَ ظهرهُ، أغمضَ عينيهِ ورأسهُ مرفوعٌ إلى السّماءِ الزّرقاءِ تلك..

ثُمّ فتحَ عينيهُ فإذا بها أرضٌ يغطّيها الرّملُ من كُلّ مكانٍ على مدّ بصره..!

- {ما هذا المكان؟}.

- {إنّهُ مهبطُ النّجومِ الحقيقي..

أم عليّ القولُ أنّهُ مهبطُ الأرواحِ الحقيقي}.

أجابَ الغريبُ واقفًا أمامَ سحاب، ويداهُ داخلَ معطفهِ الأسودِ ذاك، بصوتٍ هاديٍ ونبرةٍ مُنكسرةٍ غريبة؟!

- {ماذا تعني أنّهُ مهبطُ النّجومِ الحقيقي؟}.

- {أعني أنّنا لم نغادر مَهْبَطَ النّجومِ أبدًا..}.

وعندها أعادَ مُؤكدًا كلامهُ بنظرةٍ حزينةٍ تمامًا بشكلٍ غريب؟؟

- {لم أغادرهُ أبدًا...}.

- {ألم نغادر من خلالِ ذاكَ البابِ الأسودِ إلى ذكرياتي؟}. قالَ سحاب..

- {ألم نغادر من خلالِ ذاكَ البابَ هناك..؟}. أشارَ الغريبُ بعينيهِ عن يمينِ سحاب،

وأضاف:

- {أجل، لقد غادرنا عبرهُ، ولكنّنا كذلكَ لم نفعل}.

- {ماذا تقصد؟}.

- {مهبطُ النّجومِ ومهبطُ الأرواحِ هُمَا الشّيءُ نفسه..

وكذلكَ مُختلفانِ عن بعضهما تمامًا..}.

- {بمعنى؟}.

- {مهبطُ النّجومِ ليسَ فقط مكانًا ذو إطلالةٍ جميلة..

من خلالهِ أستطيعُ أن أُغيّر، أم عليّ القولُ، أتلاعب بِحيّزِ هالةِ ذكرياتِ الرّوحِ وأتنقلَ عبرها..

والبابُ هناكَ ما هو إلّا وسيلةٌ لفعلها..

أمّا مهبطُ الأرواحِ فهو الأساسُ والجوهرُ والحاضنُ لِكُلِّ ذلكَ والوجهةُ الأخيرة..

الأمرُ كَمَا لو أنّ مهبطَ النّجومِ هو نهايةُ البداية..

ومهبطُ الأرواحِ هو بدايةُ النّهاية}.

- {إذًا لماذا هذا البابُ تحديدًا عن غيره؟}.

أجابَ سحاب مُتسائلًا حولَ حقيقةِ ذلكَ البابِ الأسودِ ذي النّقوشِ الغريبة، وما علاقتهُ بتلكَ الذّكرى الغريبةِ سابقًا ومهبطِ النّجوم؟

- {لا أدري حقًا..}.

أجابَ الغريبُ بصوتٍ خافتٍ ونظراتٍ تائهةٍ، يحاولُ التذكّر..

وأضافَ باحثًا عن الإجابة:

- {البابُ كانَ موجودًا منذُ البداية!!}.

وعندها أكملَ الغريبُ، وعيناهُ حائرتانِ تمامًا بصوتٍ رَحبٍ يحاولُ فيهِ جمعَ شتاته..

ولكن سحاب لم تَخفَى عليهِ تلكَ النّظراتُ التّائهةُ ونبرةُ صوتهِ الزائفة..

- {هذا لا يهم..

الآن عليكَ أن تختار}.

- {إختار بينَ ماذا؟}. أجابَ سحاب..

وهناكَ ساقت عينا الغريب، عيني سحاب إلى ما يقبعُ خلفه..

وعندما استدارَ إذا بالرّملِ أمامهما بدأ يطفو في الهواءِ بشكلٍ غريب؟

وكأنّ ريحًا عاتيةً قد أصابت تلكَ الأرضَ فجأةً!

وبدأ ذلكَ الرّملُ يُشكّلُ شيئًا فشيئًا مُجسّمينِ مألوفين؟!

وظلَّ سحاب مُندهشًا تمامًا مِمّا تراهُ عيناه!

وكأنّهُ سحرٌ من عالمِ الخيال!!

فإذا بهما بابانِ أبيضانِ كبياضِ اللؤلؤ متجاورانِ لبعضهما، ومُرصّعانِ بتلكَ النّقوشِ المُذهّبةِ الحابسةِ للأنفاس.

بابانِ توأمانِ لا يوجدُ اختلافٌ بينهما أبدًا!

بابانِ توأمانِ مُتماثلانِ تمامًا.

- {ما هذان؟}. قالَ سحاب مُتسائلًا..

- {هُما وجهتك الأخيرة}. قالَ الغريبُ مُجيبًا..

- {وماذا يقبعُ خلفهما؟}. تساءل سحاب؟!

عندها ابتسمَ الغريبُ، وقالَ يحاولُ تمهيدَ الإجابةِ وصياغتها بأفضلِ طريقةٍ مُمكنة..

- {لنقل أنّ أحدهما مكانٌ لا تودّ أيّ روحٍ أن تَطأه!}.

- {أنتَ لا تعني انّ أحدهما يؤدي إلى ال—

- {أجل، ولكن ليسَ الجحيمَ الذي تظنّه}. قاطعَ الغريبُ مُؤكدًا، وأضافَ مُباشرةً بِملامحَ وجهٍ مُراعيةٍ له..

- {ولكن الآخرُ يؤدّي إلى عكسِ ذلكَ تمامًا}.

- {وهل تعلمُ أيٌّ منهما يؤدي إلى—

- {أنا لا أعلم..}.

عندها أخذَ سحاب ينظرُ إليهما بتوتّرٍ وخوف..

- {إذًا هذهِ هيَ النّهاية!}.

- {لا، كَما قلتُ لكَ، هذهِ فقط بدايةُ النّهاية يا سحاب}.

أجابَ الغريبُ مُذكّرًا بصوتٍ هادئ..

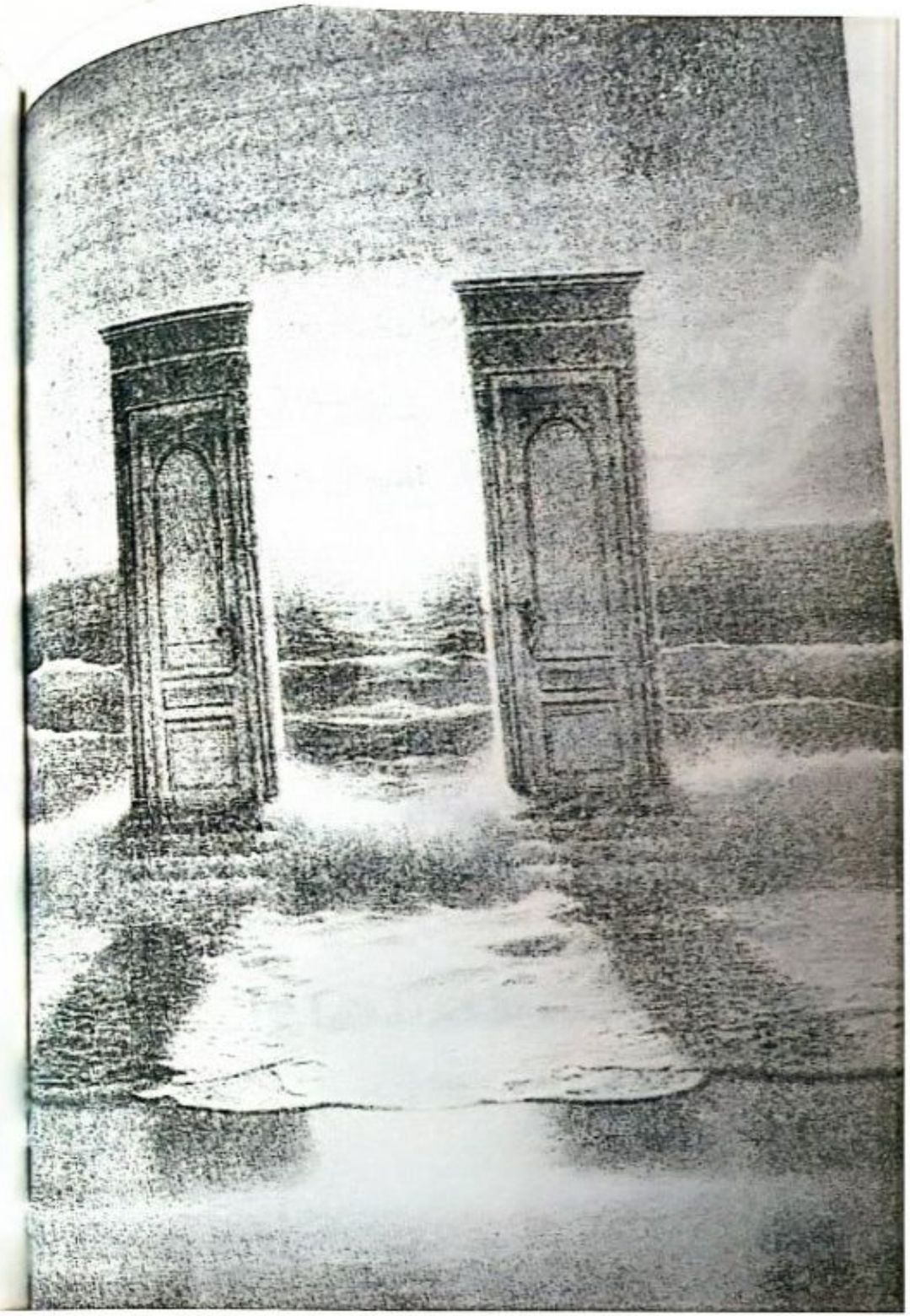

- {ما الفرق؟!

إنّها النّهايةُ في كلتا الحالتينِ بالنّسبةِ لي}. أجابَ سحاب مُبتسمًا في عينيهِ، وكُلّهُ فاقدٌ للأملِ تمامًا، فهو يعلمُ أيّهما هيَ وِجهتهُ لا مَحالة، بعدَ كُلِّ شيءٍ كانَ قد اقترفهُ بِحَقِّ والدته!

- {أنتَ فقط عليكَ أن تؤمن}. قاطعَ الغريبُ حبلَ أفكارهِ قاصدًا إعطاءَهُ بعضَ الأمل..

إذا كانَ هناكَ بعضُ الأملِ تبقّى داخلَ تلكَ الرّوحِ

التّائهةِ من الأساس..!

- {اهدأ قليلًا..}. تنهّدَ سحاب، وأضافَ بابتسامةٍ مُزيفةٍ وعينينِ راجيتين..

- {تمنّى لي الحظّ}. أنهى سحاب صاحبُ العينينِ السوداوينِ والشّعرِ الأسودِ والمِعطَفِ الأبيض..

ابتسمَ على إثرها الغريبُ صاحبُ العينينِ الرّماديتينِ والشّعرِ الأبيضِ والمِعطَفِ الأسود، وأشارَ مُودّعًا إيّاهُ وعيناهما مُبتسمتانِ لبعضهما..

وعندما همّ سحاب بالمُغادرةِ قالَ مُتذكرًا..

- {بالمناسبة، أينَ حِذائي؟}.

ابتسم حينها الغريبُ بشدّةٍ، وقال..

- {هذا ما يشغلُ بالكَ الآن حقًا؟}.

وغادرَ بعدها سحاب عاريَ القدمينِ فوقَ تلكَ الأرضِ الرّمليةِ الكثيبةِ نحوَ البابينِ أمامه..

وفي كُلِّ خُطوةٍ يخطوها يزيدُ ثقلها في أساسِ روحه..

كُلُّ خطوةٍ أثقلُ وأبطأ من التي قبلها..

كُلُّ خُطوةٍ كانت تَحملُ معها ذكرى..!

ذكراهُ معَ والدتهِ شهد التي قلبَ حياتها رأسًا على عقب..

...خطوة...

ذكرى تلكَ الليالي التي لم ينم بها إلّا وهيَ بجانبهِ تُغنّي لهُ تهويدتهُ المُفضّلة..

...خطوة...

ذكرى تلكَ الليالي التي كانا يقضيانها سويًا تَقُصُّ عليهِ قِصَصًا، حتّى يغلبهُ النّومُ وهو في أحضانها..

...خطوة...

ذكرى الأيّامِ التي كانَ يرتمي في أحضانها يشكي وجعَ قلبهِ، عندما انفطرَ قلبهُ بالحُبِّ أوّلَ مَرّةٍ من صديقةِ طفولته..

...خطوة...

ذكرى تلكَ الأيّامِ التي وبّختهُ بها لمَصلحتِه وأخذَ يجري بعدها إلى غُرفتهِ يبكي غاضبًا منها، ثُمّ تُعاودهُ بعدَ دقائقَ لتصالحهُ، وتُقبّلَ خدّهُ حتّى يرضى عليها، وتبدأ بدغدغتهِ ومُداعبتهِ حتّى يبتسمَ من جديد..

...خطوة...

ذكرى ذلكَ اليومِ الذي صَنَعَ لها إسوارةً في يومِ ميلادها، وكَتَبَ لها رسالةً، ليُريها كَمْ يُكِنُّ لها حُبًا.

تَدَفّقَ شَريطُ ذكرياتِ حياتهِ، وكأنّها تُعرضُ أمامهُ حتّى تلكَ الذّكرياتُ المَدفونةُ التي نسيَ وجودها وطمسَها عن روحهِ تمامًا، من شِدّةِ كُرههِ لها، كانَ قد بدأ بتذكرها..

وفي تلكَ اللحظةِ كانَ قد استوى وأخيرًا أمامَ البابينِ المُذهّبَين..

ووقفَ يتأمّلهُما في صَمْتٍ وهُدوء..

ثُمّ التفتَ إلى الخلفِ فإذا بالغريبِ من بعيدٍ يُناظرهُ بنظرةٍ دافئة، وابتسامةٍ مُراعية..

وهناكَ ابتسمَ سحاب مُنكسرًا، ثُمّ عاودَ النّظرَ إلى أحدِ البابينِ أمامهُ، حائرًا لا يعلمُ أيّ بابٍ عليهِ أن يختار؟!

ولكن لم يَدُم ذلكَ طويلًا حتّى أقدَمَ بخطوةٍ واثقةٍ نحو إحداهما، وأقبضَ بِكُلِّ ثقةٍ مِقبضَ البَابِ، وكأنّهُ واثقٌ مِمّا يقبعُ خلفه!!

وعندما أقدمَ بيدهِ اليُمنى لمقبضِ البَابِ توقّفَ قليلًا؟!!!

توقّفَ تمامًا قبلَ أن يفتحَ ذلكَ البَابَ، وبدأت تلكَ الذّكرياتُ التي لطالما حملها معه..

ذكرياتُ الكُرهِ والبُغضِ والاشمِئزازِ اتجاهها..

كُلُّ ذكرى جعلتهُ يَشُدُّ على مِقبضِ البَابِ كُرهًا لنفسهِ وذاته!!

كُلُّ ذكرى جعلتهُ يَشُدُّ على مِقبضِ البَابِ حتّى كادَ أن يقتلعهُ من مكانه؟!!

كُلُّ ذكرى جعلت من وجههِ يشتاطُ غضبًا وعروقُ جبينهِ برزت في وجه!!!

وساعِدُ يدهِ امتلأ بعروقِ الغضبِ ناحيةَ رُوحهِ الملعونة!

ذكرى تلكَ الليلةِ التي لم تبرح فراشهُ ولازمتهُ عندَ مرضهِ، رُغمَ أنهُ كانَ يبغضها حينها..

ذكرى تلكَ الأيّامِ التي حاولت بها أن تَتَقَرّبَ منهُ وهو كانَ ينفرُ مُتقززًا منها..

ذكرى تلكَ الأيّامِ التي لطالما ناشدتهُ ليتحدّثَ معها أو لكي يتناولَ العشاءَ برفقتها، وهو كانَ ينفرُ بنفسهِ كارهًا صُحبتها..

ذكرى تلكَ الألفاظِ الشّنعيةِ التي كان يُلقبُهَا بها..

أيتُهَا العجوز— أيتُهَا الكاذبة — أيتُهَا المريضة —

وغيرُها الكثير..

ذكرى تلكَ السّنينِ التي لطَالمَا احتفلت بيومِ ميلادها لوحدها مُنكسرةً ترجو قلبَ ابنها الوحيد..

تلكَ الأماني التي أهدرتها ترجي رِضَا قُرّةِ عينيها..

ذكرى تلكَ السّنينِ العجافِ التي حاربت مَرَضَهَا المُميتَ لوحدها وآلامَها التي عانتْها ليسَ فقط جسديًا!

بل يعلمُ انّ ألمَ جسدها لم يكُن ليُقارنَ مع ألمِ قلبها في خسارتها ابنها الوحيد، وكرههِ لها غيرِ المُبرّر..

ما الذي فعلتهُ كي يُجازيها بِكُلّ هذا الكُرهِ والحقدِ والبُغض؟!

ما الذي فعلتهُ بِحَقّ ابنها وروحها وقلبها التي لطَالمَا أرادت سعادته، كي يُجازيها بهذهِ السّنينِ العِجاف؟؟!

سِنينٌ ارتجت بها سماءَ صوتِ ابنها الحنونِ مَرّةً أخرى..

سِنينٌ دعَت فيها لسماءَ كلمة (أمّي) منهُ دونَ تلكَ الألقابِ الشّنيعة.

ذكرياتٌ كثيرةٌ كانَ عنوانُها الألمُ والانكسار، تدفّقت إليهِ جاعلةً منهُ يكرهُ ذاتهُ وروحهُ الملعونةَ تلك، جرّاءَ ما فعلهُ بِحَقّ والدته..

وهنا طَفَتْ إلى السّطحِ ذكرى تلكَ الليلةِ المُمطرةِ التي غادرَ فيها زوجُ والدته، ولازمَ بعدها مِضربُ ميلادهِ رأسَ والدته..

أخذَ يتذكّرُ ذلكَ المَشْهَدَ والغَضَبَ غيرِ المُبرّرِ الذي اعتراهُ تلكَ الليلة، وصُراخَ والدتهِ ترجوهُ أن يتوقف..!!

رُبّما كانت تلكَ ذكرى!

ولكنّهُ كانَ الآن يشعرُ بها، وكأنّها تحدثُ الآن مَرّةً أخرى!

مَلمَسُ ذلكَ المِضربِ وصرخاتُ والدتهِ أمامه..

وصوتُ تهشيمِ عضامها، وذلكَ الشّعورُ عندَ مُلامسةِ المضربِ رأسها!

تلكَ الدّماءُ التي سالت من رأسها حتّى قدمها وامتزجَت معَ حَبّاتِ المَطَرِ وطينِ الأرض.

أغمضَ جينها سحاب عينيهِ بقوةٍ وهوَ يتذكّرُ ذلكَ المشهدَ حتّى لم تستطع رُوحُهُ التّحمّلَ، ووقعَ على رُكبيتهِ أرضًا يبكي ويبكي ويبكي بشدةٍ، نادمًا على قراراتِ حياتهِ تلك...

نادمًا على مشاهدةِ والدتهِ تُصارعُ ألمَ مرضها وحدها دونَ مساعدتهِ لها!!

ثُمّ طَمَسَ سحاب وجهَهُ في الرّملِ الكَثيبِ ذاكَ يبكي دَمًا على والدته..

وأخذَ يصرخُ ووجههُ مَدفونٌ في الرّمالِ مُتأسفًا...

- {يا الهي ما الّذي فعلته؟؟؟

أريدُ أن أرى أمّي!!!}.

ثُمّ التفتَ خلفهُ وعينهُ الباكيةُ اتجاهَ ذلكَ الغريبِ الذي ظَلّ واقفًا يُشاهدُ بصمتٍ، وهو يرى سحاب يزحفُ أرضًا ناحيتهُ يرجوه..!

- {أرجوك أريدُ أن أرى أمّي فقط مَرّةً واحدة!}.

صرخ سحاب زاحفًا على رُكبتيهِ، حتّى وصلَ إلى الغريبِ الذي تزيّنَ وجههُ بِمَلامحَ ساديّةٍ تمامًا..

ثُمّ أخذَ يتمسّكُ برجليهِ يرجوهُ وعيناهُ تفيضُ دمًا..

- {أرجوكَ أريدُ أن أعود..

عليّ أن أتأسّفَ منها أرجوك، لقد جعلتُ من حياتها جحيمًا لا يُطاق!!}.

ثُمّ أكملَ بصوتٍ خافتٍ ونبرةٍ مهزوزةٍ مُنكسرةٍ، ووضعَ رأسهُ على قَدَمِ الغريبِ يرجوهُ..!!

- {أرجوكَ عليّ أن أعودَ إليها..

أريدُ أن أقفَ بجانبها هذهِ المَرّةَ فليسَ لديها أحدٌ سواي...}.

- {ماذا يُفيدُ الأسفُ الآن يا سحاب..

لقد فات الأوان}. أجابَ الغريبُ وأخيرًا بصوتٍ هادئ!

- {سوفَ تموتُ والدتكَ وحيدة..

رُبّما قريبًا جدًا، بعدما تعلمُ عن موتك}.

عندها اشتاطَ سحاب غضبًا وامتلأ وجههُ سَخَطًا، وأخذَ يحاولُ الوقوفَ مُتشبثًا بِمعطَفِ الغريبِ حتّى استقامَ ظهرهُ واستوى أمامَ عينيه، وقالَ والدّموعُ لم تفارق خدّيهِ بصوتٍ حَاقدٍ باكٍ:

- {أنتَ لا تعرفُ شيئًا عن مدى الشّعورِ بالفقدِ والوحدة!!

أنتَ لا تعرفُ ما هو شعورُ أن تخسرَ شخصًا تُحبّهُ للموت!

فماذا عن خسارتكَ شَخصًا تُحبّهُ وهو ما يزالُ على قيدِ الحياة؟!

أنتَ لا تعرفُ ما الّذي شعرتهُ أمّي كُلَّ تلكَ السّنينِ وما الّذي ستشعرهُ حينما تعلمُ بموتي؟!!!}.

- {وأنت هل علمت إذًا ما الّذي كانت تشعرهُ هيَ طوالَ هذهِ السّنين؟! إذا كُنتَ تعلم..

إذًا لماذا لم تفعل شيئًا حينها؟!!

لماذا الآن بعدما فات الأوان؟}. قاطعَ الغريبُ بذاكَ السّؤالِ الذي جعلَ من سحاب يُجنُّ جنونهُ تمامًا!!

وبدأ يضحكُ بِشكلٍ هستيريّ مُخيف!!

وأخذَ يلتفّ حولَ نفسهِ مُمسِكًا رأسهُ بكلتا يديه، في دائرةِ النّدَمِ والحَسْرَة!!

ثُمّ توقّفَ فجأةً، وأخذَ ينظرُ بتلكَ العينينِ الحاقدتين صوبَ الغريبِ، وراحَ مُندفعًا بِكُلِّ سُرعتهِ ناحيته!!

وانقضّ بكلتا يديهِ على ذلكَ الغريبِ ليدفعه، ولكنّ الأخيرَ لم يتزحزحَ لهُ طرف!!

وكأنّهُ جدارٌ صَلب؟!

ووقعَ سحاب أرضًا ووجههُ مُرتعبٌ من نظراتِ ذلكَ الكائنِ الغريب..

كانت نظراتُ الموتِ بحقّ!!!

وأخذَ يحاولُ استجماعَ قوّتهِ ورَباط جأشهِ، وقالَ مُتهجّمًا بصوتٍ باكٍ مهزوزِ النّبرة، يُحاولُ الوقوفَ على رِجليه:

- {أنتَ لا تعرفُ شيئًا عمّا هو الشّعور؟؟؟

أنتَ لا تعرفُ ما الّذي تُسبّبهُ عندما تسلبُ أحدًا من بينِ أحبّائهِ نجاة؟!!!}.

وعندما استوى سحاب على قدميهِ، وأخذَ يُلوّحُ بيدهِ في كُلِّ مكانٍ يتّهمُ ذلكَ الغريبَ عديمِ الملامحِ أمامهُ بِكُلِّ غضبٍ وجنون!!

وأكملَ يصرخُ بِكُلِّ غضبٍ ونفور:

- {أنتَ لا تعرفُ مقدارَ الألمِ الذي تُخلّفهُ وراءكَ ومقدارَ الحُزنِ والانكسارِ والضّعفِ الذي تُسبّبهُ للجميع؟؟

أنتَ لا تشعر!!

أنتَ لا تحب!!

أنتَ لا تألم!!

أنتَ لا تحلم!!

أنتَ لا تتعب!!

أنتَ لستَ سِوى الألم بعَينه..

أنتَ هو التّعريفُ الأمثلُ لِلّا شيء!!

أنتَ لا شيء..

أنتَ هو الموت!}.

وبعدَ هذهِ الاتّهامات السّاخطةِ، عمّ الصّمتُ للحظة...

ووقفَ كِلاهما للحظةٍ ينظرانِ بعضهما، ونظراتُ صاحبِ المعطفِ الأبيضِ المتَهَجّمَةِ تقابلها نظراتُ صاحبِ المعطفِ الأسودِ الهادئةِ الصّامتة..

- {هل انتهيت؟}. أجابَ الغريبُ بصوتٍ هادئ ونبرةٍ حادّة..

أمّا سحاب فظلّ صامتًا في مكانهِ مُنهدّ الكيانِ والرّوحِ تمامًا..

- {أتظنُّ أنّ الأمرَ كُلّهُ بهذهِ البساطةِ يا سحاب؟

أتظنُّ انّ الموتَ حقًا يمكنُ تفسيرهُ بهذهِ السّهولة؟

دعني إذًا أخبركَ القليلَ عن ماهيةِ الموتِ حقًا..

إذا لم يكن هناكَ نهايةٌ لِكُلّ شيء..

فإذًا لا يوجدُ معنىً لأيّ شيء أبدًا..

وإذا لم يكن هناكَ معنىً، إذًا ما فائدةُ العيشِ من الأساس؟!

جمالُ الحياةِ يكمنُ في نهايتها..

جمالُ الحياةِ هو الموت..

وفي اللحظةِ التي وُلدتَ بها تبدأ بالاحتضارِ شيئًا فشيئًا}.

قالَ الغريبُ ثُمّ وضعَ يديهِ خلفَ ظهرهِ وبخطواتٍ قليلةٍ صغيرةٍ واثقةٍ، اتجهَ نحوَ سحاب أمامه..

وأكمل..

- {تخيّل عالمًا حيثُ لا للموتِ وجود؟

تخيّل ما الّذي قد يحدث حينها!

سيصبحُ لا معنى للأحلام..

لا طعمَ للنّوم..

لا فائدةَ من العمل..

لا معنى للأعذارِ والأسَف..

لا معنى للحُبّ..

سيفقدُ العالمُ روحهُ وإنسانيته..

سيفقدُ كُلُّ شخصٍ روحهُ داخلَ ذلكَ العالمِ السوداويّ حيثُ الكمالُ والوصولُ إلى الغايةِ السّاميةِ التي لا وجودَ لها..

وسينسونَ الأهمّ ألا وهو عيشُ اللّحظةِ الآن..

@ART_OF_BOOK

سيصبحُ العالمُ أنانيًا تمامًا..

سيصبحُ هذا العالمُ الخالدُ ميتًا وهو خالد!

الموتُ يُعطي للحياةِ قيمة..

وقيمةُ الشيءِ تكمنُ في نُدرته..

الأحلامُ ستجدُ من يحاربُ لأجلها قبلَ فواتِ الأوان..

العملُ سيجعلُ من المجتمعِ يزدهرُ للوصولِ إلى الأهدافِ السّاميّة..

الاعتذارُ من الخطأ سيضمنُ تآلفَ القلوبِ والأرواح، ويزيُد من تقديرِ البعضِ بعضهم قبلَ فواتِ الأوان..

سيبحثُ النّاسُ عن الحُبّ دائمًا قبلَ أن يشيخَ المرءُ ويفوتهُ القطار..

لا يكمنُ الحُبّ في كونهِ خالدًا..

بل في الذّكرياتِ التي ستبقى حتّى بعدَ رحيلنا، وكونَ أنّ من يُحبّنا سيتذكّرنا دائمًا حتّى الموت..

فالموتُ كَما قلتُ ليسَ إلّا البداية..}.

وعندها استوى الغريبُ ذاكَ أمامَ سحاب تمامًا وأخذَ ينظرُ إليهِ بتمعنٍ، وقال:

- {الموتُ والحياةُ هُما كِفّتانِ في ميزانٍ واحد..

وبدونهما يَختلُّ توازنُ كُلّ شيء..

هل فهمتَ الآن يا سحاب..؟}.

وهناكَ وقفَ سحاب للحظةٍ يُفكّرُ بينَ نفسهِ مُنكسرًا وقالَ بصوتٍ باكٍ مُنهزم:

- {إنها وحيدةٌ تمامًا..

ولا أدري ما يجدرُ بي فعلهُ..

لقد تركتُها تعاني في مرضها المرّةَ الأولى..

والآن ستعاني منهُ، ومن ألمِ فقداني ولن تستطيعَ التحمّلَ أبدًا؟!!

فليسَ لديها سببٌ يدفعها لمحاربةِ مرضها بعدَ رحيلي الآن..

أقسمُ أنّي كُنتُ لأفعلَ أيّ شيءٍ لأكونَ بجانبها الآن}.

عندها أخذَ الغريبُ ينظرُ إليهِ يُفكّرُ بصمتٍ حتّى قالَ بصوتٍ واثق..

- {حسنًا}.

- {حسنًا ماذا؟}. قالَ سحاب مُتسائلًا؟!

- {حسنًا سوفَ تنالُ مُرادك..}.

- {هل أنتَ جادّ؟!!!}. أجابَ سحاب بصوتٍ عالٍ في استغراب؟

- {أجل}.

- {ألم تقل توًا أنّ الموتَ واجبٌ على كُلِّ روح، وأنّ بدونِ الموتِ يختلّ توازنُ الحياة، وكُلُّ ذلكَ الحديث؟!!}.

- {أجل لقد قلتُ ذلك، ولكن هذا لا يعني أنّني لا أستطيعُ فعلَ شيءٍ ما وأُؤَجِّل الأمرَ قليلًا..

ولكنّني أحذّرك!

فالثّمنُ لهذا ليسَ بخسًا أو سهلًا حتّى؟!!

هل أنتَ مُتأكدٌ أنّكَ تُريدُ فعلَ هذا؟}.

- {أجل أجل، أقسم أني مُتأكد!!}. أجابَ سحاب وعلاماتُ السعادةِ طَغَتْ على وجهِهِ ذاكَ، ودُمُوعُ الحُزنِ أصبحت دُموعَ فرحٍ وأمل!

- {ولكن هناكَ شرط}. قال الموت..

- {ما هو؟ سأفعلُ أيّ شيء!!}.

- {في كُلِّ مَرّةٍ ترى البَابَ الأسودَ أمامكَ في العالمِ الواقع، عليكَ تركُ كُلِّ شيءٍ والعبورُ خلالهُ هل سمعت؟}.

- {هل لي أن أسألَ لماذا؟}.

- {لنقل إنّ هذا فقط جزءٌ من الثّمنِ الذي ستدفعه!}.

- {وما الجزءُ الآخر؟}. تساءلَ سحاب؟

- {سوفَ نصلُ إليهِ لاحقًا}. أنهى الغريبُ بنظرةٍ غامضةٍ وصوتٍ هادئٍ بشكلٍ غريب..

واختفَ بعدها مُشكّلًا ذلكَ الرّمزَ الغريب، ولكن معكوسًا رأسًا على عقب!

وقبلَ أن يُغادرا سألَ سحاب شيئًا كانَ قد نسيهُ تمامًا:

- {من هو والدي؟}.

- {هذهِ ليست حقيقتي كي أخبركَ بها يا سحاب..

ولكن الآن يُمكنكَ معرفةُ الحقيقةِ كاملةً}. أنهى الغريبُ بابتسامة.

وغادرا بذلكَ إلى مهبطِ النّجومِ..

حيثُ بدايةُ قصةٍ جديدة..

قصةٌ عنوانها الثّمنُ الغالي..

ما الّذي يُجيبُهُ القَدرُ لسحاب؟

وما الثّمنُ الذي كانَ يقصدهُ الغريبُ حينها؟

وما الحقيقةُ التي خبّأتها عنهُ والدتهُ طيلةَ هذهِ السّنين؟

ومن هوَ والدهُ حقًا؟!

وكيفَ استطاعَ سحاب الصّغيرُ آنذاكَ من دُخولِ مهبطِ النّجومِ رُغمَ

كونها ذكرى روحِ سحاب الكبير؟

وما هي نهايةُ قِصّة ابن الشّهدِ التائهِ ذاك؟!

أم عليّ القولُ، هل هذهِ قصتهُ هوَ بالفعلِ حقًا؟!

أم هي بدايةُ قِصّةِ أحدهما ونهايةُ الآخر!

وما السّر الذي يحملهُ ذلكَ البابُ الأسودُ ذو النّقوشِ الغريبةِ وذكرى

تلكَ المرأةِ وطفليها؟!

أهي خيال؟

أم وهم؟

أم هل هيَ ذكرى!

ولم بدا الغريبُ تائهًا حينها لا يدري ما الّذي يحدث؟

الكثيرُ والكثيرُ من الأسئلةِ التي تحومُ هذهِ القِصّةَ الغريبة..

كُلُّ شيءٍ على وشكِ التغيير..

أم عليّ القول..

أنّ كُلَّ شيءٍ كانَ قد تغيّرَ بالفعلِ منذُ ذلكَ اليوم.

@ART_OF_BOOK

لذاتي القديمة..

شُكرًا لكِ..

فَبفضلكِ أصبحتُ ما أنا عليهِ الآن.

يتبَع...

@ART_OF_BOOK

FEELINGS OF DEATH

مشاعر الموت

لَطَالمَا أحبَبْتُ الوُرودَ المَيتة
فَهِيَ تُذَكّرُني دَائمًا أنّ الجَمَالَ
يَكمُنُ في المَـــوتِ أيضًا

فهد بن نايف
FAHAD BIN NAIF
@itshim_f11

DAR PAGES
9 786030 511686
دار صفحات كتاب للنشر والتوزيع